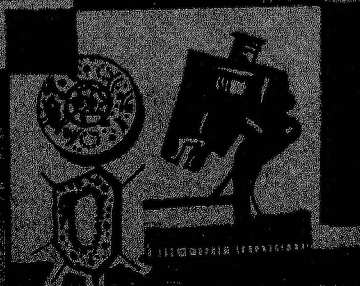
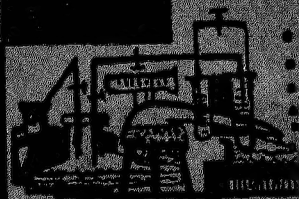


العالم في رحاب الله

الأدلة العلمية على وجود الله وحده



تأليف
مصطفى عباس الزبيري

0203435



اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد هادي

جراح والمستشفى الملك

العلم في حجاب الله

الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته

تأليف

محمد بن عبد الوهاب

يطلب من مكتبات
الأبناخ والمكتبات في دار النهضة العربية
١٦٥ سنة محمد بن عبد الوهاب ٢٤ سنة عبد الوهاب
بالقاهرة

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ سنة محمد بن عبد الوهاب



المؤلف

اهداء

إلى مثلى الأعلى ، وأستاذى الأول
ومصاحب الفضل الأكبر . . . إلى والدى

تصدير

بقلم الدكتور على محمد مطاوع

عميد كلية طب الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وإمام المهتدين من جاءنا بالهدى وبالكتاب المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . كتاب حوى الوجود كله « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » . « ونزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء » .

كتاب يعد بحق المعجزة الخالدة ، فمعجزة كل نبي انتهت بانتهاؤه وقته . ومعجزة القرآن باقية إلى الأزل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وفي سفر الخلود — كون الله المكتوب — الإعجاز بكل ما حوت الكلمة من أبعاد . وفي كون الله المنظور تفسير فترى الآيات تنطق بوجود الله وتسميح بحمد الله . وإذا كان الأعرابي قديماً قال : « البعرة تدل على البعير » والمتحضر قال : « الصنعة تدل على الصانع » ، فمالنا لا نستمع لصوت الحق يدوى فى كل مكان : كل ما فى الكون يدل على عظمة الخالق ، « قل سيروا فى الأرض

فانظروا كيف بدأ الخلق ، . « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم ، . « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، .

ولقد طاف بنا المؤلف مع مختلف العلوم في كون الله مستقلا من محيطاته إلى أفلاكه ، ومن ذرات مواده إلى عجائب مخلوقاته ، فلا يسع القارئ بعد الانتهاء من قراءته إلا أن يزداد يقيناً بما يحس به بالفطرة من وجود خالق يحبه ويرعاه سخر له ما في السموات وما في الأرض وإليه مرجعه ومنتهاه .

وإذا كان هذا الكتاب هو باكورة إنتاج المؤلف وهو ما يزال على أبواب المعرفة طالباً بالمرحلة الأولى بكلية الطب . فإنني أنتظر منه الكثير كلما توغل في المعرفة في مستقبل حياته إن شاء الله .

فسر على بركة الله . سدد الله خطاك . ونفع بك ؟

على محمد مطاوع

تقريظ

بقلم الدكتور محمد نور الدين

مدرس التشريح ورائد الشباب بكلية طب الأزهر

بسم الرحمن الرحيم

بذل الكاتب مجهوداً كبيراً في إعداد هذا الكتاب متناولاً قضية وجود الله مبيناً موقف العلم والعلماء منها ، فهو قد تنقل بنا بين المفكرين والفلاسفة القدامى والمعاصرين ، كما أنه تنقل بنا بين علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والأحياء ، خصصاً فصلاً لكل علم من هذه العلوم ، وأرانا مدى دلالة هذه العلوم على وجود خالق لهذا الكون وهو الله سبحانه وتعالى ، كما أنه أفرد فصلاً خاصاً تناول فيه القرآن الكريم وبين أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر بل إنه تنزيل من الرحمن الرحيم .

إنني أهنيء الكاتب من كل قلبي وأقدم للأسرة الطبية أديباً جديداً وإن كان بعد ما يزال طالباً ولكن العمل الذي أتتجه أكبر

من أن يقوم به أمثاله وإننى أنعشم أن يكون هذا الكتاب بداية
لحياة أدبية وعلمية لهذا الكاتب الناشئ .

ولا يفوتنى أن أهنيء طلاب الكلية جميعاً حيث إن هناك أديباً
قد خرج من بينهم والأطباء الأدباء قلة وأرجو أن يزدادوا على
مر الأيام . كما أننى أقدم للشباب واحداً منهم كرمز للكشفاح عسى
أن يقتدوا به ويكافحوا الرفعة شأن وطننا وأمتنا .

حفظ الله رائدنا وزعيمنا جمال عبد الناصر الذى فتح الطريق
أمام الشباب والذى يحمل لواء الجهد والكشفاح لإسعاد أمتنا .
وإننا نعهده على أن نسير وراءه متكاتفين فى طريق الاشتراكية .

والله ولى التوفيق

محمد نور الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ محي الدين الألواني

المدرس بجامعة الأزهر

« العلم في رحاب الله ، هذا لونٌ جديدٌ من البحث لم
تعلمه المكتبة العربية إلا قليلا . وهذا الكتاب الذي يضعه
المؤلف المجتهد الناشئ الأستاذ حسين عباس الأنصارى ، أمام
القارئ العربى صغير حجمه ، كبير نفعه .

فإنه يضع تحت أعين أولئك الباحثين الذين يثقون بصدق
القوانين الفطرية وينظرون إلى حقائق الأشياء بعقول متدبرة
وقلوب واعية وأفهام سليمة ، حديقة وارفة الظلال من شجرة
« الفكر الباسقة ذات الأغصان « السبعة » من « فصوله » —
حتى ينتقل القارئ بين ربوعها ويقتطف من ثمارها . فما أرفع
همة هذا المؤلف الشاب ! وما أحسن صنيعه ! مع صغر سنه وقصر

باعه في هذا المضمار ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ! وأثناء قراءتي السريعة لمسودة هذا الكتاب خطر ببالي أنه من المناسب الإشارة إلى بعض الدعائم الرئيسية التي قامت عليها الدعوة الإسلامية والتي هي مدار العزة ومحور التقدم في نظر الإسلام :

أولاً : إن المبدأ الأول الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية هو صقل العقول الإنسانية بصقال الإيمان بوجود صانع لهذا الكون وتوحيد هذا الصانع الخالق للعالم بجميع الأمور فلا يجرى أمر في هذا الكون إلا بمشيئته وإرادته وهو علام الغيوب ، كذلك بتطهيرها من أدران الخرافات والخزعبلات ونيز كل ظن في إنسان ، أو أى مخلوق آخر - علوياً كان أم سفلياً - بأن يكون له أثر في الكون من نفع أو ضرر .

ثانياً : إن الإسلام حفز إلى العلم والنظر والبحث ، وحث العقول على التفكير والتدبر ، والاختراع والاكتشاف .

ثالثاً : إننا نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة أشارت إلى السنن الكونية والنواميس الطبيعية التي قررتها النظريات العلمية الحديثة في الخلق وبدا الحياة والأجرام السماوية ، وكل هذا دليل ساطع على أن الإسلام لا ينافي البحث العلمي والابتكار بل إنه يدفع الإنسانية إلى ذلك ويقرها على إنجازاتها .

رابعاً : إن كثيراً من المشتغلين بالطب الحديث قد قرروا بطريقة علمية ما جاء به الإسلام من تحريم بعض الأشياء كالميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها ، واعترفوا بالحكمة من هذا التحريم التي تتفق تماماً مع النظريات العلمية الدقيقة .

ولاشك في أن هذا الكتاب يقوم بالقارىء بتطواف سريع حول هذه النقاط الحساسة في الدعوة القرآنية ، ويرسل شعاعاً على النتائج النابتة التي توصل إليها الباحثون في مختلف شعب العلوم في عصر الحديث .

ولى كل الأمل في أن يحقق مجهود المؤلف هدفه المنشود ، ويضيف لبنة إلى صرح البحث العلمي المثمر .

والله ولى التوفيق ؟

محى الدين الأولوالى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، المنزه عن السك والكميف ، الذى أحسن كل شىء خلقه وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى . بديع السموات والأرض ، المهيمن على كل الوجود بحكمته وقدرته ، الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون . . . من حارت العقول فى معرفة كنهه ، وقصرت الألباب عن إدراك عظمتة ، فراحت تسرّح الطرف فى رحاب هذا الكون الفسيح ، فلم تملك إلا أن ترجع البصر خاسئاً وهو حسير ، وأصابها البهر فى البحث عن حقيقته فلم تستطع غير الإقرار بجلاله وعظمتة ، شاهدة ألا إله إلا هو ، الحى القيوم ، العليم الخبير . . . ، الذى خلقها ، فسواها ، فعدّلها ، وخلق الوجود كله على أكمل وجه وأتم إبداع .

والصلاة والسلام على من جاء برسالة التوحيد من عنده ، نوراً وكتاباً مبيناً ، يهدى به الله من إتبع رضوانه سبل السلام - يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . . . ففتح قلوباً غلظاً ،

وآذاناً صمّاً ، وأعيناً عمياً ، داعياً إلى البصر والتأمل في ما في هذا
الكون من دلائل العظمة ، وإبداع الوجود ، الدالة على الخالق
الموجود ...

وبعد .

فإن البحث في الأدلة على وجود الله عن طريق الفكر والنظر ،
مع ما فيه من مشقة وصعوبات هو أحب الأشياء إلى النفوس
المتعطشة إلى معرفة الحقيقة العظمى التي تطمئن إليها النفس ،
ويركن إليها الفؤاد ، وتجوب في رحابها أرواح المؤمنين ...

وقد تشعبت البحوث في وجود الله ، فقام بعضها على العقل
المحض ، وقام بعضها الآخر على العاطفة المجردة ، فأدى هذا وذاك
إلى الشطط عن الحقيقة ، والحيدة عن الصواب . . بما تصوّره كل
من هؤلاء وألئك من صور للإله خالق هذا الكون ، لا تتفق
وذاته سبحانه .

وبين الحين والحين ، يرسل الله رسلاً أصفياء من خلقه ، إلى
بنى الإنسان يهدونهم الطريق ، يأخذون بأيديهم إلى شواطئ
الآمان ، ويعملون على إزالة الأوهام والخرافات نحو حقيقة
الخالق . . إلى أن من الله على الإنسانية جمعاء برسالة الإسلام ،
رسالة التوحيد والتنزيه ، مؤكدة جوهر جميع الرسالات السماوية

التي سبقتها ، وهو الإيمان بإله واحد . . (قل يا اهل الكتاب تعالوا
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً...)
قائمة على العقل والنظر والعاطفة جميعاً .
وقطعت الإنسانية بظهور الإسلام شوطاً كبيراً نحو الرقي
العقلي ، والخلقي ، والمادى .

وقام رجال الإسلام بعد أن لحق صاحب الرسالة بالرفيق الأعلى ،
بالدعوة إلى الله الواحد الأحد ، فنشروا النور في أرجاء المعمورة ،
وانتشلوا الإنسانية من متاهات الجهل والظلام إلى بر المعرفة والنور .
ثم أصاب المسلمين -- ولا أقول الإسلام -- نهضة أعرفتهم
في الفرقة والتناحر . . فذهلوا عن دينهم وعن دعوة الإنسانية
إليه . . وبذلك رجعت الإنسانية شوطاً كبيراً إلى الوراء حيث
سيطرت عليها المادة والأفكار الإلحادية ، فهي لم تخلط في حقيقة
الإله هذه المرة ولكنها لم تعترف بوجود إله مطلقاً ، وإنما معبودها
هو المادة والآلة ، فعانت الإنسانية كثيراً في سبيل ذلك ..

ثم جاء عصر العلم . عصر الطائرات والصواريخ ، والذرة ، وسفن
الفضاء وظن الناس أن مصير الإنسانية بعد تقدم هذه العلوم
سيكون هو الإلحاد . ولكن الله الذي يعلم أسرار خلقه ، والذي
يجعل لكل زمان معجزة تناسبه ، قد جعل معجزته في إظهار عظيمته
لهذا العصر ، هي تقدم دراسة هذه العلوم ، التي وضع القرآن الكريم

الأسس الأولى لها ، ونبه العقول إلى البحث فيها في إيجاز حكيم -
(قل انظروا ماذا في السموات والأرض ...) .

وقرر النتيجة الحتمية لهذا النظر : (سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . .) .

فأينا علماء المعامل من أكثر الناس إيماناً بالله وأشدهم يقيناً
بخالق هذا الكون ومبدعه . . وسنرى ذلك جلياً من خلال
صفحات هذا البحث .

وقبل أن أبدأ في عرض فصول هذا البحث فإنني أود أن أقرو
شياً . . وهو أنني لما كنت غير متخصص في دراسة العلوم
الطبيعية ودراساتها ، حيث إنني ما زلت في مرحلة الدراسة
الأزهرية^(١) ، وليست لدى معلومات عن هذه الدراسات غير
المعلومات العامة التي استفدتها من خلال قراءاتي لما يتعلق
بهذه العلوم ، إذ أنني شغوف بمطالعة هذا النوع من العلوم ، فليس
لدى بالطبع تجارب شخصية من الناحية العملية .

ولما كان هدفي من هذا البحث ليس هو سرد المعلومات من
غير حقائق أو أدلة ، بل هو إثبات الأدلة العلمية القاطعة على وجود

(١) كتب المؤلف مسودة هذا الكتاب قبل أن يلتحق بكلية الطب وقت أنه
كان طالباً بالسنة الرابعة الثانوية بمعهد القاهرة الديني .

الله . لذلك اعتمدت في هذا البحث على إثبات النتائج للتجارب الشخصية التي توصل إليها العلماء ، كل في مجال تخصصه ، مزودة بالإحصاءات والمعلومات التي ليس للقارىء غنى عنها . كما أنني عنيت بعناية خاصة بإثبات اعترافات العلماء بوجود الخالق ، والأسباب التي أدت بهم إلى الإيمان بوجود الله .

وكان من السهل جداً أن أُلخص كلامهم بأسلوبى الخاص ، ولكن الأمانة العلمية تأبى ذلك . كما أنني أعرف مدى تأثير النص الصادر من العالم نفسه في نفس القارىء ، وخاصة الشباب الذى يتعطش إلى معرفة آراء هؤلاء العلماء في قضية الإيمان بالله وموقف العلم منها .

وقد قسمت هذا البحث إلى سبعة فصول .

عرضت في الفصل الأول بعض شبهة الملحدين ، والرد عليها ، وبينت أن الملحد إنما هو شخص يكذب على نفسه ، حيث إن الإيمان بوجود إله مهيمن إنما هو شيء فطرى في نفوس البشر .

ثم جلت في الفصل الثانى جولة مع بعض المفكرين ، الذين لديهم معرفة بالعلوم الطبيعية عن طريق الدراسة النظرية والتأمل .

مفسرين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير مسلمين ، اختلفت أماركن وجودهم ، وتباينت مصادر ثقافتهم ، واختلفت أزمتمهم ، إلا أنهم جميعاً قد اتفقوا فيما توصلوا إليه وهو الإيمان بالله المنزه عن كل نقص ، الواجب له كل كمال . . .

أما في الفصل الثالث فقد جلت جولة مع علماء الفلك ، وأثبت الحقائق والقوانين الفلسفية التي تنفي استمرار النظام في هذا الكون بدون إله يوجهها ، كما أثبت سبجات كل عالم فلسفي في رحاب هذا الكون معترفاً بوجود المظم الواحد . .

وكانت جولتنا في الفصل الرابع مع الطبيعة وعلمائها ، وقوانينها التي تنفي أزلية هذا الكون المادى ، الذى سيزول حتماً ، كما أنه وجد منذ زمن محدود .

كما سجلت كذلك في هذا الفصل اعترافات علماء الطبيعة بوجود إله يحكم هذا الكون .

أما في الفصل الخامس فقد جلت جولة مع الكيمياء وعلمائها ، وقوانينها التي تنفي وجود هذا الكون عن طريق المصادفة العمياء .

وسجلت كذلك في هذا الفصل اعترافات علماء الكيمياء بوجود

الخالق عن طريق الممسوه في هذا المكون من عجائب حيرت العقول ، فلم يملكوا إلا أن يقرروا بوجود الله .

ثم كانت الجولة في الفصل السادس مع علم الأحياء ، ورأينا في هذا الفصل عجائب الله في مخلوقاته الحية . ثم رأينا عجائب إلهام الخالق لمخلوقاته وتوجيه لها في سير حياتها . كما سجلنا نتائج العلماء الذين صفت نفوسهم وبهرتهم عظمة الخالق في مخلوقاته الحية فسجدوا له ، مقرين بوجوده .

ثم كانت جولة الختام في الفصل السابع مع القرآن ، وقد أثبتنا في هذا الفصل ، كيف أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر ، بل إنه وحى من الله ، وبالتالي فهو يدل على وجود الله . وبعد . فإن هدفنا من هذا البحث هو تقديم شعاع من النور يضيء الطريق للحيارى والتائهين ، الذين تتوق نفوسهم إلى الحقيقة الكبرى ، وخاصة شباب هذا العصر ، الذى طغت عليه الأفكار المادية ، ليرى كيف أن دراسة العلوم تؤدي إلى الإيمان بالله ، لا إلى الإلحاد كما كان يعتقد ، حيث إن أساطين العلم قد سجدوا لله خاشعين .

والله أسأل أن يكون في هذه الصفحات مارميت إليه ، وأن
ينفع بها من يريد طريق النور ، فإن كنت قد وفقت فله الحمد أولا
وآخرأ ، وإن كنت قد جانببت الصواب ، فأسأله سبحانه أن يغفر
لي ذلتي ، ويكفّر خطأي ، ويضع عني وزري ، ولا أملك إلا أن
أقول : (رب زدني علماً) .

مبين عباس الزهاري

١٢ شارع جمال الدين أبو المحاسن

جاردن سبتي في ٢٨ من شعبان ١٣٨٦ هـ
الموافق ١١ من ديسمبر ١٩٦٦ م

الفصل الأول

شبه الملاحدين

شبه الملاحدين

قال قائل : إننا لو سُئلنا يوماً : من هو أ كذب الناس على نفسه ؟ لقلنا بدين تردد : هو الرجل الذى يزعم أنه ملحد .

نعم إن أ كذب الناس على نفسه هو ذلك الذى يزعم أنه لا يؤمن بالله وأنه لا يقع تحت سيطرة قوة عليا ، لأن التدين فطرى فى طبيعة البشر ، والإحساس بأن هناك قوة عليا تسيطر على الكون وتهيمن عليه إنما هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان ، وقد ملأ هذا الشعور نفس الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه الأرض .
 فحينما تخيل أن هذه القوة كامنة فى صورة الشمس التى تنعم على الوجود بالحياة والدفع فعبد الشمس واتخذها له إلهاً ، وأحياناً أخرى تخيل هذه الصورة فى النار التى تطفى فلا يقف فى سبيلها كائن من كان ، فعبد النار واتخذها له إلهاً ، ومرة ثالثة تخيل هذه القوة فى الثعبان ، والبقرة ، والفرد ، والأصنام المصنوعة من الحجارة ، فعبدها على كر الدهور واتخذها له إلهاً .

والنتيجة الأخيرة لكل هذا على تتابع الأيام ومرور الزمن هو أن الإنسان كان يحس دائماً بعجزه ، وأن هناك قوة ما تسيطر

عليه وتقدر له أموره ، بيد أنه كان يشطح في تصوير حقيقة هذه القوة فيزيغ عن سواء السبيل وينحرف عن طريق الهدى ، حتى يرسل له الله رسولا يأخذ بيده إلى جادة الطريق ومنبع النور ومالك الملك . . .

لماذا يلح الناس :

الذى يجر الناس إلى الإلحاد — على ما أعتقد — أحد أمرين :

١ — إما وصول عقيدة مشوشة خرافية لا تتفق والعقل السليم بما تصور به الإله من صور لا تتفق وحقيقة المعبود ، مما يؤدي إلى النفور كلية من الاعتقاد بهذا الإله ، والوقوع في براثن الإلحاد .

٢ — إرادة إلى الانطلاق والتحلل من كل قيود الفضيلة ، بما جبلت عليه النفس من الركون إلى الشهوات والاستمرار للملذات العاجلة ، لأن هذا النوع من مدعى الإلحاد يعلم أنه إذا اعترف بالله ، فسوف يعترف بالتالي بالبعث والحساب والعقاب ، وهذا ما يؤرق مضجع نفسه المتشبهة بتراب الأرض ، والتي تريد أن تنال أقصى ما تشتهي من الملذات دون ما رقيب أو حسيب . وحينئذ يستطيع هذا المسكين أن يمدح نفسه ويقول لها : ارتعى وامرحى ، فلا إله ولا حساب ، وما يقوله المتدينون ما هو إلا مجرد هراء ، وإلا ،

ذا كان هنالك إله فلماذا لا أراه ! وهو حينما يفعل ذلك فإنه
يزيد على ما تفعله النعامة حينما تدفن رأسها في الرمال وتقول
ففسها ما دمت لا أرى الصياد فأذن ليس هنالك صيادون ، وحتى
فرض أن هنالك صياداً فإنه لن يرى ما دمت لا أراه !!

بهذا المنطق السخيف يريد بعض الناس أن يخدع نفسه ويدعى
إلحاد وينكر وجود الله وهو أجهل من أن يعرف كيف يأكل
كيف يمشي .

ونحن إذا معنا النظر في شبه الملحدين بالنسبة لوجود الله فسوف
ندها مجرد مكابرة ومغالطة ليس لها أساس من العقل أو المنطق .
وسوف نرى اضطراب التفكير واضحاً في شبههم التي
ناقض بعضها البعض الآخر .

ثبات المكون عند هودسن :

يقول هودسن تل : وكل ما في الوجود من أول ذرة الهباء
ل عقل الإنسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير ، وبناء عليه فلا
سانع للوجود^(١) . فهودسن يبني إلحاده على نظام الكون وإحكامه
عدم الشذوذ أو الاضطراب في أجزائه ، فما دام الكون بجميع
أفيه يسير سيراً ثابتاً ، فلا صانع للكون يشرف عليه ويوجهه

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥٠٨ مجلد ١ .

حركته ، وإلا لو كان هناك صانع لاختلقت حركات الكواكب من يوم لآخر ، ولولد الإنسان على شكله المعروف يوماً ، مثلاً ، بينما يولد في يوم آخر على شكل كلب ناطق ، أو قرد مفكر ، أو ثور يمسك بالقلم ويكتب ، ويقود الطائرة ، ويحطم الذرة . ويصنع الصاروخ !

هذا هو ما يريد أن يقوله لنا الأستاذ « تتل » .

فإذا تركنا هذه الشبهة الإلحادية السخيفة وجدنا شبهة إلحادية أخرى على النقيض من ذلك تماماً .

نبأين المتحولات عند جيبيل :

يقول الأستاذ « جيبيل » إن الأستاذ فوغت شاهد وجود حيوانات خنثى ، لها أعضاء تناسل الجنسين معاً ، ومع ذلك فلا يستطيع الفرد منها أن يلقح نفسه بنفسه ، فلاى فائدة وجد هذا التركيب ، ويوجد من الحيوانات أنواع كثيرة الإخصاب لو تركت وشأنها لملأت البحار في مدى سنين قليلة ، وغطت سطح الأرض بطبقة ارتفاعها كارتفاع بيروت ، فلاى حكمة هذا التركيب ؟ ،^(١).

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ١١٠ مجلد ١ .

هذه شبهة أخرى لا تقل سخافة عن سابقتها ، وهي على النقيض منها ، وهذا هو حال الفكر الإلحادى المشوش .

يقول الفيلسوف الكبير محمد فريد وجدى فى رده على هؤلاء المخبولين : « كل هذا فى زعم الأستاذ جييبيل خلل فى الخلق لاحكمة ، ركان يمكن فى رأيه أن يكون الوجود أبدع من هذا بكثير ، كيف ذلك ياترى ؟ يقول الأستاذ جييبيل : « الطبيعة كان يمكنها أن نكسّر الجسم الإنسانى بحيث تنفذ منه القنابل دون أن تحدث به ضرراً ، ويقبل ضربات الصوارم بدون أن ينجرح . » نقول : ماهذا التناقض بين شبهات الماديين ، فبينما الأستاذ جييبيل يبنى إلحاده على النقص الموجود فى الكون عهدنا زميله تتل يقيم إلحاده على نظام الوجود وعلى عدم شذوذ ذرة منه عن ذلك النظام ،^(١) . كما أن هناك نظرية أخرى بالنسبة إلى وجود الكون وما فيه ، وهي تدل على عدم سلامة تفكير صاحبها ، بل تدل على خبله .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى : « دونك نظرية أخرى من نظريات الماديين ليست بأقل استحتماقاً للسخرية والاستخفاف من سابقتها : زعم أحد فلاسفة الالمانيين وشايعه غيره أن الصانع لم يوجد فى الماضى ولكنه وجد الآن (كبرت كلمة تخرج من

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥١١ مجلد ١ .

أفواههم) أى أنه تعالى علواً كبيراً كَوْن كل هذه الكائنات على ما هى عليه من إبداع وجمال ونظام وهو غير عالم (معاذ الله) ماذا يعمل وغير مدرك وجود ذاته ، إلى أن توصل إلى خلق الإنسان ، وهو أفضل الكائنات وأشرفها ، فأدرك وجود نفسه به ، وصار لها معبوداً ١ ، (١) .

« لست شعري ما معنى أن الصانع كون كل هذه المبدعات وهو غير عالم ماذا يصنع ؟ ما هذه السفسطة ، ماذا يقول حضرة لوقلنا له . كما قال العلامة الطائر الصيت « نيوتن » : « هل يعقل أن هذه العين تتكون بدون العلم بنظريات الضوء ، وهل يمكن أن تتكون هذه الأذان بدون العلم بنظريات الصوت . . . ؟ »

ثم يقول الأستاذ فريد وجدى : « ونقول له نحن هل يمكن أن تعطى لهذه الأعضاء الحيوانية الدقيقة هذه الوظائف المتناسبة بدون الإلمام التام بعلم الفسيولوجيا ؟ وهل يتصور العقل أن تتمتع هذه البائنات بشرائط حياتها وتكاثرها وبقائها بدون العلم بحالة الأوساط التى تعيش فيها معرفة كلية ؟ بل هل يتصور أن يهب الإدراك من لا حياة له ولا إدراك . . . ؟ (٢) »

(١) الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

الوسط المناسب والمصادفة :

وإذا تركنا هؤلاء وترهاتهم وجدنا شبهة أخرى تدل على الجهل الكامل . فبعض الملحد ينسب وجود الكون وما فيه من حيوان ونبات وجماد إلى الوسط المناسب ، أى إنه عندما تها الوسط المناسب لوجود هذه الكائنات وجدت ، فالوسط المناسب على هذا الرأى هو الموجد لهذا الكون وما فيه .

ويدحض الأستاذ فريد وجدى هذه الشبهة فيقول لهؤلاء :
 « من الذى كون الوسط المناسب الذى صالح لتكوين كل هذه المبدعات التى تقصر عزائم التصورات عن إدراكها ؟ ومن هو الذى متع ذلك الوسط بكل ما يحتاج إليه من النوايس والقواعد ؟ ومن هو الذى وفق بين الشرائط الضرورية وناسب بين أفاعيلها لكي تكون مكوناتها منتظمة غير مشوهة ؟ بل من هو الذى أعد تلك الأوساط وهياها وخالف بينها لتصلح لإيجاد الكائنات المختلفة مع علمك بأن الكرة الأرضية فى مبدأ أمرها كانت كتلة ملتهبة متجانسة فى سائر جهاتها ، هل يعقل أن كل هذه البدائع التكوينية والصنائع المتناهية فى الجمال والدقة تكون نتيجة أوساط أرضية لافاعل فيها غير الصدقة العمياء ، ما أخرى أصحاب هذا المذهب بأن يجنبوا فى الصحراء حتى يجوعوا فإذا طلبوا الغذاء قيل لهم :

انتظروا حتى يستعد الوسط من نفسه لإنبات القمح لكم ، وحتى يستعد الوسط لتكوين أحجار تصنعون منها طاحوناً ، وحتى يستعد الوسط لتجميز العجين والنار ، فيأتيكم غذاؤكم عن طريق الصدقة ، بفضل الوسط المناسب ، لأجل أن تقيموا على صحة نظريتكم دليلاً مفحماً^(١) .

هذه هي بعض أفكار الملاحدين التي يبنون عليها إلحادهم ، وهي لا تزيد عن مجرد أفكار سقيمة ، إن دلت على شيء فإنما تدل على قفافة قائلها ، وتناقضهم ، وهروبهم من الحقيقة التي لا ينسكروا العقل المتزن والفكر السليم .

يقول الشيخ محمد الغزالي : « أتعرف ما هو الإلحاد ؟ أن يسفه المرء نفسه ، ويركب رأسه ، ويعمض عينيه عن كل ما حوله ، ثم يصدر الأحكام جزافاً ، لا تخضع لمنطق ولا يربطها بفكر سليم^(٢) . والحقيقة أن الملاحد دائماً ضيق الصدر ، مشتت الفكر ، لا يصمد أمام المناقشة الواعية طويلاً ، ولا يتحمل الحجة والبرهان يقرعان رأسه كقرع الرصاص المتلاحق .

(١) المديقة الفكرية ص ٤٣ .

(٢) عقيدة المسلم .

٢٢

وذلك بسبب ضيق الأفق ، وانحراف التفكير ، والنسك
بالاعتقاد الأعمى ...

وصدق الله العظيم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) سورة البقرة - آية ٧ .

ويقول، جل شأنه في هؤلاء : (ومن الناس من يجادل في الله
بغير علم ولا هدى ولا كتاب مـنير) سورة الحج - آية - ٢٠ .

الفصل الثاني

مع الفكر

مع الفكر

فطرة الله :

لا شك في أن وجود الله سبحانه وتعالى من البديهيات ، إذا
ما ظل الإنسان على فطرته السليمة ، دون تشويش ، ودون تعصب
أعمى للأفكار السقيمة .

فالطفل أول ما يسأل وهو لا يزال متعثراً في كلماته . فإنما يسأل
عن خلق هذه القطة اللطيفة ، أو تلك المعزة الوديدة التي تدر عليه
اللبن والتي يألفها ويأنس إليها ، أو عن ذلك الأرنب النشط الذي
يقفز حوله في مرح وسعادة . من خلق كل ذلك ياترى ؟ كثيراً
ما يوجه الأطفال الصغار هذا السؤال الفطري في طبيعته ، الفلسفي
في مضمونه إلى آبائهم . فهم يدركون بعة ولهم الفطرية التي ما زالت
ساذجة أن لكل صنعة صانعاً ، وأن لكل مخلوق خالقاً . (فطرة
الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) . تلك
هي فطرة الطفولة وذلك هو وحي الإلهام .

فإذا ما شب الطفل ونمي ودخل في طور الشباب والمراهقة ،

وتفتح مخه للبحث في بعض المفاهيم ، وفي مقدمتها وجود الله . جنح للبحث عن حقيقة ذلك الإله الذي كان يعتقد في وجوده أثناء طفولته ، ما هو ذلك الإله ؟ ولم لا يراه ؟

ويستمر في هذه الوسوس ويناقش هذه القضية مع والديه ومدرسيه وأصدقائه فإذا لم يجد توجيهاً سليماً وجواباً شافياً يزيل عنه شكوكه ، فإنه لا يلبث أن يجنح إلى الإلحاد ، على إثر قراءته لأفكار إلحادية أو استماع إلى هذه الأفكار تسد عليه الطريق وتغلق مخه عن تقبل أية فكرة عن الالهية ، لأن الفكر الإلحادى إنما هو فكر متعصب أعمى .

والدلائل على وجود الله أكثر من أن تحصى ، لأن كل ذرة في السكون تشهد بوجوده سبحانه ، وتنطق باسمه ، وتسبح بحمده .

ونحن في هذا الفصل سوف نجول جولة قصيرة مع بعض المفكرين الذين أدركوا وجود الخالق بالنظر والتأمل والتفكير السليم ، البعيد عن التعصب الأعمى ، مسلمين وغير مسلمين ، قدامى ومحدثين لنستخلص آراءهم ونتائج تفكيرهم وخلاصة دراستهم . وهم مختلفون زمناً ، ومكاناً ، وجدساً ، ولكنهم متفقون فكراً وروحاً لأن العقول البشرية إذا ما زكت وصفت فإنها تصبح

قاربة في تفكيرها واتجاهها وسلوكها ، متحدة في غايتها ، وهي
وصول إلى الحقيقة .

بين سقراط وأحد المحربين :

قال سقراط : قل لي يا أرسطوديم أيوجد رجال تعجب بهم
هارتهم وجمال صنائعهم ؟
أرسطوديم : نعم حقيقة .

سقراط : أخبرني عن أسمائهم .

أرسطوديم : أعجب في الشعر الروائي بهوميير ، وفي الدشيرانيا
بميلانييد ، وفي المراثي بفوكل ، وفي صناعة النمايل ببولسكتيت ،
وفي التصوير بروكسيس .

سقراط : أي الصناعات في نظرك أولى بالإعجاب . أأذى يخلق
صوراً بلا عقل ولا حراك ، أم الذي يبدع كائنات ذات
عقل وحياة ؟

أرسطوديم : وحق جوبتير أن أولاهما بالإعجاب هو الذي
يبدع الكائنات المتمتعة بعقل وحياة ، إذ لم تكن هذه الكائنات
من نتائج الاتفاق .

سقراط : ولكن أى الكائنات أولى أن تعتبرها من نتائج
الاتفاق أو من نتائج الإدراك ، آتى غايتها ظاهرة ، أم التى منافعها
مشكوك فيها ؟

أرسطوديم : من العدل أن أقول إن الكائنات ذات النفع هى
أولى بأن تنسب إلى عمل الإدراك .

سقراط : ألا ترى أن الذى فطر الناس قد أعطاهم ما لديهم
من الأعضاء لغايات ومقاصد خاصة ، فأعطاهم الأعين للنظر والأذان
للسمع ، وماذا كانت تجدين الروائح إن لم تكن لنا أنوف ، وهل
كنا نشعر بمرارة المر وحلاوة الخلو إن لم تكن لنا أسنة تميز بين
هذه الطعوم ؟ ثم ألا ترى من دلائل التبصر والحيلة أن تكون
الآعين لرقبتها ومرتعتها فى التأثر قد تمتعت بالأجفان ثققل وتفتح
بالإرادة ، وتسدل على العين وقت النعاس ، وقد حليت أطرافها
بأشبه شئ بالغربال من الرمش ليحميها شر الرياح ، وأن الحواجب
قد وضعت لتمنع تساقط العرق إليها ، وأن الأذان خلقت قابلة تميز
جميع الأصوات ، بدون أن تملىء قط ... كل هذه الأعمال التى
تدل على بصر واحتياط إلى أى شئ تعزوها . للاتفاق أم
للإدراك ؟

أرستوديم : لا وحق جوبتير إن هذه الأعمال إذا نظر إليها
لإنسان تدل على أن قد صنعها صانع يحب الكائنات الحية .

سقراط : وماذا تقول في الميل المودع في النفوس للتناسل ،
في الحنان المخلوق في قلوب الأمهات للميمنة على فلذات أكبادهن ،
في الخوف الموجود في تلك الكائنات من العطب .

أرستوديم : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع كائن
لر خلق الحيوانات^(١) .

هذه مناقشة واعية وحكيمة وهادئة جعلت هذا الملحد يعترف
بوجود الله في آخر الأمر بعد أن رأى كل الأدلة تشير إلى وجوده .

وقد آثرت إيراد هذا الجزء الكبير من هذه المناقشة لما فيه من
تسلسل متتابع يكمل بعضه بعضاً ، ولما تنقسم به هذه المناقشة من
البساطة والوضوح وقوة الحججة . ولا غرو فهي صادرة من أبي
الفلاسفة الإلهيين « سقراط » الذي توصل إلى وجود الله عن طريق
البحث والنظر والتأمل في فترة ومكان ليس بهما رسول يوفر على
الإنسان بحثه في موضوع كهذا من أصعب وأعقد الموضوعات
الفلسفية .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٤٨٦ مجلد ١ .

ديكارت والذات الخامسة :

وإذا تركنا سقراط فيلسوف اليونان القديم إلى فيلسوف قريب العهد بنا وهو « ديكارت » فسيحدثنا عن أدلة وجود الله التي استنتجها من وجود ذاته هو .

قال ديكارت : « ١ - إني مع شعورى بنقص ذاتي أحس في الوقت نفسه بوجوب وجود ذات كاملة . وأراي مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسه في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال » .

٢ - إني لم أخلق ذاتي بنفسى ، وإلا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركها ، إذن . أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال وإلا اضطرت أن أطبق عليها التعاليل الذي طبقته على نفسي .

٣ - « إن عندي شعوراً بوجود ذات كاملة - لا يفترق في الواضح عن شعورى بأن مجموع زوايا المثلث تساوى زاويتي قائمتين^(١) .

ويتضح من ذلك أن ديكارت أدرك أنه ليس كاملاً ، وأنه لا بد أن تكون هناك ذات كاملة يحتاج إليها وتهيمن على سير

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٤٩٠ مجلة ١

عيانه ، وأن مجرد شعوره بهذا الإحساس يدل على وجود تلك
لذات ، لأنها لو لم تكن موجودة لما خطر في ذهنه ذلك
لإحساس بها .

كما أن العلامة الفسيولوجي ، لينين ، يقول : « إن الله الأزل
لكبير العالم بكل شيء والمتندر هلى كل شيء قد تجلى لى ببدائع
صنائه ، حتى صرت دهشاً متحيراً ، فأى قدرة وأى إبداع أودعه
بصنوعات يده ، سواء فى أصغر الأشياء أو أكبرها ، إن المنافع
التي نستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظمة رحمة الله الذى سخرها
لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بوسع حكمته ، كذلك حفظها
عن التلاشى وتجدها يقرر بجلالته وعظمته ، (١) .

هكذا يقرر العلامة لينين حكمة الله القدير فى تناسق مخلوقاته
من أصغر ذرة إلى أعظم جرم ، لا فرق بين هذه وتلك ، فكلها
آية فى الإبداع والجمال .

وكما أمعن الإنسان فى التأمل والنظر كلما تجلّت له عظمة المالح
وبهرته دقة صنعه وكلما ازداد بحناً كلما قرب من اليقين والإيمان .
أما أولئك الذين يدعون الإلحاد فهم أنصاف متعلّين ، وأنصاف

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٥٠٤ مجلد ١ .

المتعلمين أجنى على الحقائق من الجهلاء ، وأقرب إلى التعصب
الاعمى من المقلدين بدون تفكير أو نظر .

وإذا تركنا فلاسفتنا القدامى إلى فلاسفتنا المحدثين ، فإننا نجد
تقارباً في الفكر ، وتوحداً في الهدف ، ووصولاً إلى نتيجة واحدة
بين هؤلاء وأولئك .

يقول الشيخ محمد الغزالي مدلاً على وجود الخالق بمنطق سليم
وفكر متزن وحجة قاطعة ودليل دامغ .

(١) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق
الأرض التي يدرج فوقها ، ولا السماء التي يعيش تحتها ، والبشر
الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك . فمن
المفتوع به أن وظيفة الخلق والابراز من العدم لم ينتحلها لنفسه
إنسان ، ولا حيوان ، ولا جماد ، ومن المفتوع به كذلك أن
شيئاً لا يحدث من تلقاء نفسه ، فلم يبق إلا الله ، وقد قرر القرآن
السكريم هذا الدليل (٢) . قال تعالى : (أم مخلقوا من غير شيء أم
هم الخالقون . أم خلَقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) .

(ب) لو دخل المرء داراً فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى

م ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة .. الخ ، لجزم بأن هذا نيب لا يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن ير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

والناظر في السكون وآفاته ، والمادة وخصائصها ، يعرف أنها ومة بقوانين مضبوطة ، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة ككيمياء والنبات والحيوان والطب .. وأفادت منها الناس أجمل رائد ، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم ، حاسم في ادكل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق . كلا . إن النظام الدقيق تنى في طوايا الذرة مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من اء(١) . قال تعالى : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل اسراجاً وقرأ منيراً) سورة الفرقان : ٦١ .

(ح) هل فكرت فى هذه السيارات المنطلقة ، أعنى هذه كواكب التى تخرق أعماق الجو ، التى تلتزم مداراً واحداً تنحرف عنه يمينا ولا يساراً ، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطل . ولا تعجل ، ثم ترتقبها فى موعدها المحسوب فلا تختلف عنه . إن الكرة تطاق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بهد ليق ، أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المهوى ها والمظلم ، فهمى معلقة لا تسقط .. سائرة لا تقف ..! كل فى دائرة

(١) عقيدة المسلم .

لا يعدوها ، وقد يصطدم المشاة . والركبان على أرضنا وهم أصحاب
بصر وعقل ، أما هذه الكواكب التي تزحم الفضاء ، فإنها لا تزيع
ولا تصطدم ،^(١) .

قال تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز
العليم .. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار وكل في فلك يسبحون) . سورة يس آيات ٣٧ — ٤٠ .

مَن هيمن على نطاقها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى
أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجرى بهذه القوة المائقة ؟ إنها
لا تتركز فى علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحة
أعاريها لها التقدير الأعلى ،^(٢) قال تعالى : (إن الله يمسك السموات
والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه
كان حليماً غفوراً) .

(د) لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة ، فنحن
قبل ميلادنا لم نكن شيئاً (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن
شيئاً مذكوراً) وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية
معروفة ... إننا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا

(١) عقيدة المسلم ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ .

وإحساسنا يهديننا إلى ذلك ، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطوراً ذاتياً .

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلمها . . قيل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل . . فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربّه ؟ إننا لم نكن شيئاً فكنا . . . فن كوننا ؟ (١) (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) .

نعم . الله . . .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل مبيناً ارتباط السبب بالمسبب ، والصنعة بالصانع ، والإبداع بالمبدع : « إذا تصادف أن مر الإنسان على مزرعة شاسعة في مكان مقفر ، ووجد أنها قد ضرب حولها سور حديدى يمنع عنها غوائل المعتدى ، وأن هذا السور قد زين بما ترتاح إليه الأعين من نباتات ومتسلقات ، وخلف السور زرعت مصدات الريح ، ومانعات الهبوب ، وللمزرعة باب جميل وعم مناسب ، على جانبيه مقاعد وثيرة لراحة الداخل ، وأما كن لقضاء حاجته من أكل وشراب ، ثم تتسع بعد ذلك المزرعة ، فنرى أشجارها المختلفة الأصناف قد شذبت ، وأزهارها المتعددة الأشكال قد نسقت ، وترعها وقنواتها شقت بما يحقق الغرض منها ،

(١) عقيدة المسلم .

وفي وسطها بناء للسكن قد حسن شكله وانتظم ما بداخله ، وقد
زود بكل ما يحتاج إليه المرء .

فهل ينسب خلق ذلك إلى المصادفة ؟ وأن هذه المزرعة وهذا
البناء إنما وجدا من عدم ؟ وأنها والمكان الخرب سواء ؟ كذلك
الحال في عجائب الحياة في الأحياء إذا ألقينا نظرة عابرة متأملّة على
أى كائن حي لا نملك إلا أن نسبح للخالق الذى يثبت وجوده
ما نراه في عجائب الحياة في الأحياء . . . (١) .

ولنقص لحظات أخرى مع الشيخ الغزالي في تأملاته ومنطقه
المتسلسل .

يقول الشيخ الغزالي : د لو قيل لك إن إسكافياً في إحدى
حارات القاهرة شارك بعمله في إرسال صواريخ الفضاء ، وبعث
الأقمار الصناعية . فماذا تقول ؟ ستقول يميناً : هذه أضحوكة .

لماذا ؟ لأن إطارة هذه الأقمار توافر عليها نقر من العلماء .
المالقة أنقوا من الدراسات الكونية ما يعجز أمثالهم عن مناله .

إن سبعين قنطاراً تنطلق في الفضاء وتعود وفق خطة مرسومة ،

(١) الله والعلم الحديث ص ٥٣ .

متحدية قوانين الجاذبية وعواصف المجهول عمل هائل تراصت
عقول كبيرة في إتقان كل أنملة منه .

وليس ثم مجال للقاصرين والجاهلين يتحمل وجودهم ، بله
مشاركتهم ، فما للأساكفة وهذا الأفق . ولو قيل لك انظر هذا
القصر الوسيق الأركان السامق البديان ! إن أحد البغال التي تشد
عربات النقل هو الذي شاده ! !

إنك بداهة ستثق من أن القائل قد جن ، لماذا ؟ لأنك تعلم أن
أفكاراً نيرة وأيدياً قادرة هي التي خططت الشكل ، ثم أقامت
الأركان ، وصاغت الأبواب والنوافذ ، ونسجت شبكة الضوء
والماء ، ووزعت عليه علواً وسفلاً أنواع الطلاء . .

وأنى لبغال كلها هذه القدرة ؟ (١) .

« إن الإيجاد والتدبير وظائف عالية ، لا يمكن أن تتم إلا إذا
تصورنا إرادة عليا ، وقدرة عليا ، وحكمة عليا ، وعلماً أعلى ،
وإبداعاً أعلى . هذه الصفات لا تتصور إلا في ذات المريد المقادير
الحكيم العليم ، بديع السموات والأرض ذي الجلال والإكرام »
ثم يقول الأستاذ الغزالي مخاطباً المنكرين لوجود الخالق :

(١) مجلة منبر الإسلام العدد ٣ سنة ١٣٨١ ص ٦٣ .

« إنك تتصور في تراب الحقول الذى تأثقت فوقه الأزهار والثمار
عبقريّة مصورة خلاقه ، وأنا لا أتصور فى تراب الحقول شيئاً من
هذا ، وأرجع وجود الأزهار والثمار إلى كائن أعلى هو الجدير
بأن يسمى الخالق المصور .

« إنك تستقبل الوليد حين يتفتح عنه الرحم زاعماً أن فى جسم
الأم المصانع التى نسجت اللحم ، وأنشأت العظم ، وأوجدت المخ
قابلاً للذكاء والتفكير ، وأنا لا أرى فى جسم الأم إلا مجالاً لعمل
المشرف الأعلى الذى يقول : (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من
طين . ثم جعلناه نطفه فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا
العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه
خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ^(١)) سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

والإنسان هو آية الإبداع الإلهى فى هذا الوجود بما أوفى
من قوة مفكرة وميزات عالية تجعله أسبغ المخلوقات فى كرون الله
الفسيح . وهو يعتبر أكبر دليل على عظمة الصانع الذى خلق
فسوى وقدر فهدى . وإذا ما نظرنا إلى الإنسان ككامل فإننا سنقف
مشدوهين أمام عظمة الصانع الحكيم .

فالإنسان يقوم بأعقد العمليات الفسيولوجية والبيولوجية مع تنسيق عجيب بين أجهزة جسمه المختلفة وبين الوسط المحيط به ، محتفظاً بسر الحياة واستمرار التفكير وقوة الإرادة حتى استحق أن يكون خليفة الله على الأرض . بيد أنه قد ينحط في بعض الأحيان إلى الدرك الأسفل من الانحطاط حتى يفوق الحيوان البهيمى في ذلك حينما يبتعد عن مصدر الهداية الإلهية وينقطع عنه مدد السماء .

ولكن الإنسان إذا صفت نفسه وسمت روحه فإنه سوف يجد كل شيء في هذا الوجود ينطق بجلال الله .

يقول الشاعر عبد الله شمس الدين :

سل الواحة الخضراء والماء جاريا
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندا
سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسماء
وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا
ولو جن هذا الليل وامتد سرمداً
فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا ؟؟

ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم
سوى الله بحريه كما شاء راويا ٩٩
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت
أفى كونكم من يوقف الريح ناهيا ٩٩
ألا أيها البحاث ما بال بحكم
توقف مشدوها لدى الكون واهيا
إلهى ضل الناس فى جنح غيهم
وليس لهم إلاك يارب هاديا

وبعد . فإن الفكر السليم والفطرة الصافية يدركان وجود
الخالق الاسمى سبحانه وتعالى . وقد ظهر لنا ذلك جليا فى استعراض
خليجات بعض هؤلاء المفكرين الذين تبأينت أجناسهم ، واختلفت
لغاتهم وأزمنة وجودهم ، وفصلت البحار والفيافي بين أوطانهم
ولكنهم اتفقوا جميعاً فى أفكارهم ومشاعرهم لأن الحق لا يتعدد
بل هو واحد أبداً .

الفصل الثالث مع الفلك

مع الفلك

يتعلق علم الفلك بدراسة الأجرام السماوية والمجموعات الشمسية وما لها من تأثير فعال في الظواهر الطبيعية والتغيرات الجوية على عالمنا الصغير الذى نعيش فيه ، ويستخدم الفلكيون لذلك أجهزة دقيقة ومناظير ضخمة ومع ذلك فهناك أشياء كثيرة لم يروها ، غير أنهم يحزمون بوجودها . ولذلك فهم أقرب الناس إلى الإيمان بالله الذى لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

يقول الأستاذ العقاد : « إذا جازت المفاضلة بين حقوق العلماء فى بحث المسألة الإلهية ، فأرجح العلماء حقاً فى هذه المباحث هم علماء الطبيعة الفلكيون ، وصدق الأستاذ العقاد . فالعالم الفلسفى يسرح الطرف فى آفان هذا السكون الفسيح ، فلا يملك إلا أن يقر بإبداع الله وعظمته . . . أفلاك تدور ، وكواكب تسبح ، وأنجم تتألق ، وفضاء يمتد ويمتد ، مئات البلايين من النجوم والشموس الساطعة ، عدد لا يدركه حصر ، ولا يتصور أن يصل إلى منتهاه عقل ، وأصغر نجم من هذه النجوم يفوق كرتنا الأرضية بملايين المرات من حيث حجمه !

هذا هو كل ما توصل إليه العلماء حتى الآن بالأجهزة الحديثة ،
 والمناظير الضخمة بيد أن هناك من النجوم ما لا يرى أو يحس
 ومع ذلك فإن علماء الفلك يؤكدون وجودها ، لا يدخلهم في ذلك
 شك حيث إنهم يرون آثارها . ونحن نعلم أن هناك أشعة فوق
 البنفسجية وأشعة تحت الحمراء ندرك آثارها ونعلم خواصها ومع
 ذلك فهي لم تر ، لكننا نجزم بوجودها قطعاً ، لذلك كان العالم
 الفلكي شديد الإيمان بوجود الله ، الذي يرى آثار قدرته في كل
 شيء أمام عينيه ، لأنه يعلم أن كثيراً من الأجرام المادية
 لم ندرك ، فكيف بالخالق ؟؟

قال تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا
 ما خلقت هذا باطلاً سبحانه) (لا تدركه الأبصار وهو يدرك
 الأبصار) يقول العلامة « سينكا » ، « لا يستطيع المرء أن يرفع
 بصره نحو السموات العلى إلا وينفض إجلالا ووقاراً ، إذ يرى
 ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها في أفلاكها ،
 وتنقلها في أبراجها ، ^(١) .

وصدق الله العظيم : (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى

(١) الله والعلم الحديث ص ٤٢ .

في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم
ارجع البصر كرتين ينقاب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .

سورة الملك : ٣ ، ٤ .

القوة المبرهننة :

سأل الناس يوماً الفيلسوف الشهير العلامة د نيوتن ، أن يأتهم
بدليل على وجود الله يكون في درجة المحسوسات ، فقال لهم :
ولا تشكوا في الخالق . فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة
وحدها هي قاعدة الوجود ، لأن ضرورة عمياء متجانسة في كل
زمان وفي كل مكان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في
الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها
مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر
إلا من كائن أعلى له حكمة وإرادة . . . ومن المحقق أن الحركات
الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ،
لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب لأجل أن
تدور هذه الكواكب حول الشمس ، أن توجد يد إلهية تدفعها
على الخط المناسب لمداراتها . . . ومن الجلي الواضح بأنه لا يوجد
أى سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها
للدوران في جهة واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى

تغيير يذكر ، فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . ثم إنه لا يوجد سبب طبيعي استطاع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات من السرعة المتناسبة تناسباً دقيقاً مع مسافتها بالنسبة للشمس ، ولما ركز الحركة ، تلك الدرجات الضرورية لأن تتحرك هذه الأجرام على مدارات ذات مركز واحد مشترك بين جميعها ، فلاجل تكوين هذا النظام مع جميع حركاته يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كمية المادة الموجودة في الأجرام السماوية المختلفة ، وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة ، وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين توابعها ، وما تورن ، وجوبيتر ، والأرض ، وقدر السرعة التي يمكن أن تدور بها هذه الكواكب ، وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مراكزها .

إذن فقارئة هذه الأشياء والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود سبب لا أعنى ولا حادث بالانفلاق ، ولكن على علم راسخ بعلم الميكانيكا والهندسة ، « وهذه الكائنات كلها في قيامها على أبداع الاشكال وأكملها ، يرى حقيقة كل شيء في ذاته ويدركه أكل إدراك ؟ » (١) .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ص ٤٩٦ مجلد ١ .

٥٢

هذا عالم من أساطين علماء الفلك وكبار علماء الطبيعة ،
وصاحب قانون الجاذبية العامة ، يشهد عن يقين وبكل ارتياح
بوجود الخالق جل شأنه ، الذى أبدع الكون ونظمه بقدرته
وحكمته . فهو يقرر ذلك بعد دراسات مستفيضة وتأمل متبصر
ونظر ثاقب ويقين لا يقبل الشك ، فهو مع علمه بأن هناك قوة
جذب بين الكواكب وبين الشمس ، كذلك بين أجزاء الكون
كله ، إلا أنه يقرر أن هذه القوة الجاذبة لاتصنع شيئاً مالم تسيرها
يد إلهية . وهو يصف الخالق بأوصاف متقاربة مع الأوصاف التى
وصف الله سبحانه بها نفسه .

سبحانك اللهم . ما أبدع عظمتك ، وما أعظم إبداعك ،
وما أجل صنعك .

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن
أمسكهما من أحد من بعده) .

استفازه الخلق بالمهادنة :

ويقول الفلكى الشهير د لابلان ، صاحب نظرية السديم :
« أما القدرة الفارقة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة فى
المجموعة الشمسية ، وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ونظمت

حركاتها بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة ، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات ، بأدق حساب .
 ان هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعرفه خلال هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه ، بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادفات إلا باحتمال واحد في أربعة تريوليونات ،^(١) .

يقول الشيخ الغزالي : « وما أدراك ما أربعة تريوليونات ؟
 إنه عدد مكون من كلمتين ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهاراً على أن يعد في كل دقيقة ١٥٠ عدداً . »

علمية الأرض بالكون :

إذا قارنا حجم الكرة الأرضية بحجم النجوم والأفلاك الأخرى ، أخذتنا العزة بالإثم ، واشتط بنا الغضب . . . كيف ونحن المخلوقات الرافية ، ذات العقول التي جابت الآفاق واكتشفت المجهول ، وسخرت الكون لخدمتها ، تكون دنيانا بهذه الضآلة ،

(١) عقيدة المسلم .

بحيث لا تذكر في حساب الحجوم والمسافات بالنسبة إلى هذا الكون الفسيح ؟

وما هذا الغضب وذاك الشطط إلا لأننا لا ندرك لأول وهلة حكمة الخالق ، وسر الصانع الحكيم في إيجاد كوكبنا على هذه الصورة ، من حيث حجمه والجو المحيط به . أما حينما نعلم الحكمة من ذلك فسوف نخر سجداً لله شاكرين . . .

يقول الدكتور - أ . كريسي موريسون : « ومن بين تلك الكتل التي اقتلعت تلك الحزمة من الكون التي نسميها بالكرة الأرضية ، إنها جسم لا أهمية له في نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم جسم نعرفه حتى الآن ، ^(١) .

ويقول الدكتور فرانك إلتن : « كثيراً ما يسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لا نهائي ، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر ، أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لمعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى الذين يحيطان بها واصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت ، أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥٥ .

أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ،
وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائى ، وزاد الضغط الجوى
من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ،
ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة على سطح الأرض... ولو كانت
الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها
للأجسام التى عليها مائة وخمسين ضعفاً وانقص ارتفاع الغلاف الجوى
إلى أربعة أميال من خمسمائة ميل . ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ، ولا
ارتفع الضغط الجوى إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراماً على السنتيمتر
المربع ، ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حالياً رطلاً واحداً إلى
١٥٠ رطلاً ، ولتضاهل حجم الإنسان حتى صار فى حجم ابن عرس
أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . .
« وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحالىين عن الشمس ،
وسرعتها فى مدارها ، تهيب للإنسان أسباب الحياة والإستمتاع بها
فى صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذى نشاهده
اليوم فى حياتنا »^(١) إن الفيل يزن القناطير المقتنطرة ومع ذلك فهو
لا يساوى شيئاً إذا ما قورن بالإنسان الذى لا يتعدى وزنه ١ : ٤٠
من وزن ذلك الحيوان الممول ، ولكن شتان بين العقل المفكر وبين

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩

كومة من اللحم ،شتان بين تل من الرمال وقطعة من الماس لاتتعدى
بضع جرامات .

إن الله الذى كرم بنى آدم وفضلهم على كثير من خلق تفضيلا ،
قد سخر لهم ما فى البر والبحر وخلق لهم ما فى الأرض جميعاً ،
ولكن الإنسان ظلوم كفار ، بيد أن الله رحيم غفار . .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « والسكرة الأرضية تدور
حول الشمس بسرعة معدلها ثمانية عشر ميلا فى الثانية ، ولو أن
معدل دورانها كان مثلاً ستة أميال أو أربعين ميلا فى الثانية ، فإن
بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع
حياتنا ... ثم إن السكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣° درجة .
ولهذا دواع دعت إليه . فلو أن السكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان
القطبان فى حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات
يتحرك شمالاً وجنوباً ، مكندساً فى طريقه قارات من الجليد، وربما
ترك صحراء بين خط الإستواء والملح ، وفى هذه الحالة كانت تنبعث
أنهار من الجليد وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالمالح،
لتكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج ، وكان ثقل الكتلة الهائلة من
الجليد يضغط على القطبين فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الاستواء

أو فورانه ، أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض ، ويقل هطول المطر في كافة أرجاء العالم بما ينتج عن ذلك من عواقب مخيفة^(١) ... ولو كان قرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوة الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الإضطراب ، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم ،^(٢) .

أدركت حكمة الصانع فيما صنع ؟ ؟

(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرأ
منيراً) . الفرقان : ٦١

ويقول الدكتور — سيسل هامان : د إذا رفعنا أعيننا نحو
السماء ، فلا بد أن يستولي علينا العجب من كثرة ما نشاهده فيها

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥٣

(٢) الرحم السابق ص ٥٥

من النجوم والكواكب السابحة فيها، والتي تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة، مهما مرت بها الليالي وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، إنها تدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة.

فهلّا يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى في الفضاء؟ .

والحق أنه من قطرة الماء التي رأيناها تحت المجهر إلى تلك النجوم التي شاهدها خلال المنظار المقرب، لا يسع الإنسان إلا أن يمجّد ذلك النظام الرائع، وتلك الدقة البالغة والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه . . . وكما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً: إن الله هو خالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً^(١).

هكذا أدرك هؤلاء العلماء الذين لم يقصدوا إلا الوصول إلى الحقيقة - والحقيقة وحدها - عظمة خالق هذا الكون، وحنوه على مخلوقاته وإنعامه عليهم. ولم يزد هم علمهم إلا شعوراً بضالة هذا

(١) الله يتجلى في عصر العلم من ١٤٣ .

الإنسان أمام مالك الملك وخالق السموات والأرض . كما أن بحسبهم لم يزد لهم إلا تقرباً إلى الله واحتفاءً في رحابه .

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار) .

واليوم ، وقد اتجه الإنسان إلى استكشاف الفضاء ، فأرسل صواريخه وأقماره ، فإننا لا نعتبر ذلك إلا فاتحة خير تزيد الإيمان بوجود الله . وقد طمأننا القرآن الكريم بذلك من أربعة عشر قرناً ، حينما نزل الوحي على سيد المرسلين ، فأعرض الظالمون لأنفسهم ، وتغطرس الذين أغلقوا عقولهم . ولكن الله دائماً متم نوره ولو كره الكافرون .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

نعم . إن دراسة الفضاء طريق إلى تثبيت الإيمان بالله والاعتراف بعظمته . إن سفينة الفضاء التي لا يزيد وزنها عن عدة قناطير اقتضت جهود عشرات الأجيال من العلماء والباحثين ، واشترك في صنعها آلاف من العلماء والمهندسين والعمال ، ثم انطلقت إلى الفضاء الرحب ، موجهة بأجهزة على الأرض نحفظ لها خط سيرها .

وتوجهها إلى مدارها السليم . ولو حدث خلل في هذه الأجهزة الموجهة للسفينة لسقطت على التو وأصبحت حطاما ... فإذا كانت هذه الكتلة التي لا تذكر لا يمكن أن تستمر معلقة في الفضاء بدون موجه يمسكها ، فكيف بتلك الأجرام المتناهية في الضخامة، المعلقة في الفضاء بلايين السنين ؟ أيعقل أن تدور بغير موجه ، أو أن تحلق بغير مهيمن عليها . كلا . إنها في قبضة الله . وتحت توجيه الخالق .

هذه على ما أتصور هي النتيجة النهائية لاستكشاف الفضاء . إذا ما تجرد الإنسان من أهوائه وصدق مع نفسه وفطرته .

ولقد سمع رائد الفضاء السوفيتي « جاجارين » وهو محلق في الفضاء بمركبته يقول : إنه شيء رائع . . رائع جداً ، إنني أرى من الألوان ألواناً لم أرها من قبل ، إنه لمنظر ساحر ! ليت الشعراء كانوا معي حتى يصفوا هذا المشهد البديع .

أما الرائد الثاني « تيتوف » فقد قال في مؤتمر صحفي : إنه عندما كان محلقاً في الفضاء ، ورأى الأرض فوق رأسه تدور وهي معلقة في الفراغ قال في نفسه : ترى من يمسكها هكذا ؟ وكيف أنها لا تنقع ؟ لا شك أنه أحس بأن هناك قوة عليها تمسك هذه الكرة الغليظة .

ولكن ، لأمر ما ، عمدة تيتوف مؤتمراً صحفياً آخر قال فيه
إن الله لو كان موجوداً لراًه من خلال مركبته ١١ جالسا على العرش
ممسكا بالصولجان !

ولكنه على كل حال لم ير هذا المشهد !

أما « جون جلين » رائد الفضاء الأمريكى فإنه قد صدق مع
نفسه وتحدث بما أوحى به إليه فطرته .

يقول جون جلين : « والآن ... ماذا أريد أن أقول ؟ أريد أن
أحدث عن إنتظام الكون بأسره من حولنا . . من أصغر تكوين
ذرى ، إلى أضخم شيء يمكن تصوره . . مجرات تبعد ملايين من
السنوات الضوئية ، كلها تسير فى مدارات مرسومة محددة فى علاقة
كل منها بالآخر .

فهل يمكن أن يكون ذلك كله قد حدث إنفاقاً ؟ . . أ كانت
مصادفة أن حزمة من نفايات الغازات الطافية بدأت فجأة فى صنع
هذه المدارات وفقاً لانفاقها الخاص ؟

إننى لا أستطيع أن أصدق ذلك . . بل كانت تلك خطة محددة
وهذا واحد من الأشياء الكثيرة فى الفضاء التى تبين لى أن
هناك إلهاً . وان قوة ما قد وضعت كل هذه الأشياء فى مداراتها

وأبقها هناك . . . وأنت لا تستطيع أن تقيس الله بعبارات
علية . . . إنك لا تستطيع أن ترى أو تحس أو تشم أو تلمس
القوى الدينية إذ أنها شيء غير ملموس،^(١).

شتان بين هذا وأولئك ، شتان ما بين الصدق مع النفس
والكذب عليها .

قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،
إنما يتذكر أولو الألباب) .

(١) مجلة المختار عدد يولييه سنة ١٩٦٢ من ٢٠

الفصل الرابع

مع الطبيعة

مع الطبيعة

دراسة علم الطبيعة ، من الدراسات التي توصل إلى إدراك إبداع الخالق سبحانه وتعالى عن تجربة يقينية ، وأدلة محسوسة ، تتجلى في إبداع الموجودات من أصغر ذرة إلى أعظم نجم يتألق في هذا الكون اللانهائي ، فهذا العلم يعتمد في غالبية دراساته على الإختبارات العملية والتجارب المتكررة ، حتى يتوصل العالم الطبيعي إلى دليل واضح أمام عينية ، يوصله إلى وضع نظرية ، ثم إلى صياغة قانون ثابت ، كما أن عالم الطبيعة قد تصادفه بعض الظواهر التي تنتج عن أشياء لا يستطيع رؤيتها أو إدراكها حسياً ، ولكنه يرى آثارها واضحة أمام عينيه ، فالذرة لم نرها ، ولم نر ما بداخلها ، ومع ذلك وبعد دراسة الذرة ثبت أنها تحتوى على عدة جسيمات دقيقة .

موضوعة في نظام متناسق وقوانين تحكمها ، فالذرة تتكون من نواة تحتوى على البروتونات ، وهذه النواة تقع في مركز الذرة ، يدور حول هذه النواة عدد من الإلكترونات مساو لعدد البروتونات ، وهذه الإلكترونات تدور في مدارات مختلفة الأقطار ، بحيث لا يصطدم الإلكترون بآخر ، بقوة جذب معينة تحفظ توازن الذرة وتجعلها في حالة ثابتة ، إلى غير هذه الأعاجيب التي تحتويها.

الذرة التي لم تر ، ولكن العالم الطبيعي يعرف كل هذا النظام المعجز في جوف هذه الذرة التي تعتبر الوحدة التي يتكون منها هذا العالم ، وهذا النظام يشبه تماماً ذلك النظام الموجود في المجموعة الشمسية . فالشمس في مركز المجموعة ، تدور حولها الكواكب المختلفة — ومن بينها الأرض — في أفلاك ثابتة ومدارات معينة لا تعدوها تنظمها قوة جذب معينة تحفظ هذا النظام إلى ما شاء الله ، كل كوكب له مدار معين بقطر معين من مركز المجموعة ، يمنع اصطدام كوكب من هذه الكواكب بآخر .

وصدق الله العظيم : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) .

وعلماء الطبيعة الذين تعمقوا في دراستهم يؤمنون إيماناً يقينياً بوجود إله يسيطر على هذا الكون ، مبدع ، حكيم ، عليم خبير ..

وسنرى الآن مدى البرهان على صدق هذا القول من خلال اعترافات أساطين هذا العلم .

يقول الدكتور : فرانك إلان^(١) ، نافياً بالدليل القاطع صحة

(١) عالم الطبيعة البيولوجية .

ذلك الرأى القائل بأن هذا الكون أزلى ، لا بداية لنشأته : «والرأى الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون ، وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية ، وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق . وليس هنالك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الإحتمالين أكثر مما فى الآخر ، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما إلى يوم نصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الإنخفاض ، هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات ، عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضى الوقت ، أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث .

ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد

أن يكون هذا الكون من صنع يديه،^(١).

ويقول الدكتور : بول كاي رانس إبرسولد^(٢) — مبينا قصور العلوم والعقل الإنساني عن إدراك الماديات ، فضلا عما هو ليس مادياً : ، إن العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وجدت الذرات ، والنجوم ، والكواكب ، والحياة ، والإنسان بما أوتي من قدرة رائعة . وبرغم أن العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الأخرى ، فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هذا الكون ، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي . والحق أن التفكير المستقيم والإستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله ،^(٣).

ويقول الأستاذ : ملين إدوارد^(٤) في رده على الماديين معتبراً أقاويلهم مجرد أضاليل وفروض باطلة لا تستند إلى عقل ولا تؤدي إلى برهان صحيح : « ويجب أن يندهش الإنسان حينما يرى أمام

(١) الله يتجلى في عصر العالم س ٨

(٢) أستاذ الطبعة البيولوجية

(٣) الله يتجلى في عصر العالم س ٢٩ .

(٤) عالم طبيعة إنجليزي .

هذه المشاهدات الناطقة المتكررة الدالة على حكمة المبدع رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلتائج للمصادفة أو بعبارة أخرى نتائج للخواص العامة للمادة ، وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الأحجار والخشب ، وأن إلهامات النمل مثل أسمي وأن مدركات القوة المدركة الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوة الطبيعية أو الكيميائية ..

إن هذه الفروض الباطلة أو بالأحرى هذه الأضاليل العقلية التي يسمونها باسم العلم الحسي ، قد دحضها العلم الصحيح دحضاً ، فإن الطبيعي المحقق لا يستطيع أن يعقلها أبداً ، وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة ، سمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية يرشد مخلوقاتها إلى أعمالها اليومية^(١)

ويقول الدكتور : إيرفينج وليام ، معترفاً بوجود الخالق الذي هدته إليه دراساته ، والتي أثبتت له أن المصادفة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود هذا الكون : « أما بالنسبة إلى نفسي بوصفي أحد المشتغلين بالعلوم فإنني لا أستطيع أن أنفي قوانين المصادفة لأنني ألمس نتائجها في كثير من أمور حياتنا اليومية ولا أستطيع كذلك أن أرفض النظريات المادية رفضاً باتاً ، لأن نجاح المشتغلين بالعلوم

يتوقف على مدى وصولهم إلى تفسيرات طبيعية للظواهر العريضة التي يدرسونها .

ولكنني أومن بوجود الله ، إنني اعتقدت في وجوده سبحانه لأنني لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الإلكترونات والبروتونات الأولى ، أو الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى ، أو البروتوبلازم الأولى ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول .

إنني أعتقد في وجود الله ، لأن وجوده القدسي هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها ، (١) .

ويقول الدكتور : ستانلي كونيغدن (٢) في تدليله على وجود الله على إثر ملاحظته لشجيرة ورد مغروسة بجانب كوخ صغير ، مستنتجاً أن هذه الشجيرة لا بد أن يكون هنالك إنسان قد غرسها بجانب هذا الكوخ لينتفع بها ، وأنه لا يعقل أن تكون قد وجدت بجوار هذا الكوخ مصادفة: ومنذ سنوات عديدة رأيت شجيرة ورد جميلة مزهرة نمت على جانب طريق منعزلة في بنسلفانيا . وعندما

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٥ .

(٢) عالم طبيعي وفيلسوف .

مررت بالمسكان بعد فترة من الزمن ، رأيت بجوار الشجيرة كوخاً صغيراً تهدم ، وقد غطتها الأعشاب وبعض البقايا النباتية ... لقد أدركت بالبداهة أنه لا بد أن تكون هذه الشجيرة قد زرعها إنسان لينتفع بها بجوار ذلك الكوخ ، ومع أنني لم أر هذه الشجيرة عند زراعتها ، وليس لدى مرجع أستدل به على تاريخ غرسها ، فإنني لم أشك في أنها قد زرعت في مكانها وتحت ظروفها بواسطة الإنسان ،^(١) .

ثم يقول مدللا على أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تصل إلى حقيقة الأشياء غير المادية :

« وكثيراً ما طلبت من تلاميذى أن يصفوا لي شيئاً غير مادي مثل الفكرة ، وطلبت إليهم أن يبينوا لي التركيب الكيموي للفكرة وطولها بالسنتيمترات ، ووزنها بالجرامات ، ولونها ، وضغطها وأن يصفوا لي شكلها وصورتها ، وقد عجزوا جميعاً عن تحقيق ذلك ، وصار من الواضح أنه لكي نصف شيئاً غير مادي ، لا بد من استخدام مصطلحات وأوصاف أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن المصطلحات التي نستخدمها في دائرة العلوم ... إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه وتعالى ويدل على قدرته

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٨ .

وعظمته وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته . ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولما كنا نرى آياته في أنفسنا ، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته ،^(١) .

وصدق الله العظيم : « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

العمل الذي كثر في وعظمته الله :

من مخترعات هذا العصر التي تعتبر آية في الإبداع والتقدم في العلم ، ما توصل إليه العلماء ، من تصميم جهاز يتركب من أنابيب خاصة وأجهزة دقيقة ، يقوم بالعمليات الحسابية المعقدة ، والرد على بعض الأسئلة التي توجه إليه كتابة ، على أساس نظريات وتصميمات خاصة يعرفها علماء ذلك الفن .

وحينما تم هذا الاختراع انطلق بعض الجهلة من أصحاب الفكر القاصر يعلنون : أنه لا إله . . لماذا ؟ لأن الإنسان قد توصل إلى

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٠ ، ٢٢ .

صنع إنسان عبقرى ، يستطيع أن يرد على أى سؤال يوجه إليه ، كما أنه يستطيع أن يعيش آلاف السنين بدون أن يعدو عليه الموت الذى يعدو على الإنسان ..

وكادوا يفرقون عجباً من هذا العقل المعجزة ! ونسوا في ضمرات هذا الشطط أن هذا العقل إنما هو من صنع أناس من بنى جنسهم ، صممه عقولهم — وعقولهم فقط — ولا يستطيع حيوان آخر أو جماد أن يصمم ذرة منه ، ومعنى ذلك أن هذا التصميم قد تم بواسطة عقول مفكرة ظلت السنين الطوال تدرس ، وتدرس ، بمعاونة آلاف من العلماء الذين سبقوا ، ومهدوا الطريق ليتم هذا العمل بعد آلاف السنين .

وإذا سألت هؤلاء المعجبين : هل كان في وسع الخمار — مثلاً — أن يصمم هذا العقل ، أو هل كان في وسع مصنع من المصانع أن يصنع قطعة واحدة منه بدون إشراف عقل مفكر ، لأجابوك على الفور : قطعاً لا ...

فإذا تساءلت : لماذا ؟ لقالوا لك . لأن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يفكر ويرتب ثم يصمم ويتسكر بما أوتى من عقل جبار وبديهية حاضرة .

وهنا نسأل : أليس في وسع العمل الإنسانى أن يصمم جهازاً

أبداع من هذا الذى صممه ؟ وبديهي أن الرد سيكون بالإيجاب .

ومعنى ذلك أيضاً أن هذا العقل الإنسانى أبداع وأعظم من ذلك الجهاز الأصم الذى تؤكد البديهة أنه لا يمكن أن يصمم بدون عقل مفكر .

ثم نسأل أخيراً : هل يعقل أن يصمم ذلك العقل الجبار الذى يتمتع به الإنسان بدون مصمم عاقل ، حكيم ، خبير ، ولسكن :
« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

أما العلماء الراسخون فى علمهم ، فلم يزد علمهم إلا إيماناً ، ولا انتصارهم إلا تواضعاً وخشوعاً أمام عظمة الخالق .

ومن أول هؤلاء الأستاذ كلود . م . هانواى^(١) مصمم العقل الإلكتروني .

يقول : « لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم منج الإلكتروني يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية الشد فى اتجاهين ، ولقد حققنا أهدافنا باستخدام مئات من الأنايب .

(١) أخصائى الآلات الكهربائية والطبيعية لافياس .

المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ،
 ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر
 بيانو ولا تزال الجمعية الاستشارية « في لانجلى فيد » تستخدم هذا
 المخ الإلكترونى حتى الآن ، وبعد اشتغالى بهذا الجهاز سنة أو
 سنتين ، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التى تطلبها تصميمه ،
 ووصلت إلى حلها ، صار من المستحيلات بالنسبة إلى أن يتصور
 عقلى أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير
 استخدام العقل والذكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع
 والتنظيم ، وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فإنها متشابكة
 متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيداً فى كل ذرة من ذرات تركيبها من
 ذلك المخ الذى صنعته . فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم ،
 أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى ، الكيمى ، البيولوجى ، الذى
 هو جسمى والذى ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا
 الكون اللانهائى فى اتساعه وإبداعه ، إلى مبدع يبدعه ؟^(١) .

وهكذا نرى البون شاسعاً بين العلماء ومدعى العلم ، فهذا العالم

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩٠ .

الذى قام بتصميم العقل الإلكتروني بنفسه لم يغتر ولم يزد به علمه، ولكنه وجد نفسه ضيقاً بين عظمة الله وقدرته .

أما أولئك فقد سارعوا إلى نفي وجود إله بمجرد أن سمعوا أن هنالك عقلاً إلكترونياً قد صنعه إنسان عبرى ١١

وصدق الله العظيم : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب » .

ويبين الدكتور روبرت هورثون كامبرون (١) البون الشاسع بين الإنسان الحلى المفكر ، وبين الأجهزة الآلية البكاء التى يصنعها الإنسان من مادة مبيتة يديه . فيقول : « من الممكن تصميم آلة تلعب الشطرنج ، ولكن هذه الآلة لن تستطيع أن تسعد بما تحقق من النجاح ، أو تشمت فى خسارة اللاعب الآخر أو تحزن على ما وقعت فيه من أخطاء » (٢) .

ويقول الأستاذ إيرل تشيستر (٣) « فدراسة الظواهر الكونية دراسة بعيدة عن التجيز ، وتنقسم بالعدل والإنصاف قد أقنعنى بأن لهذا الكون إلهاً ، وأنه هو الذى يسيطر عليه ويوجهه . أى إن

(١) أخصائى الرياضيات .

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٢٨ .

(٣) عالم الرياضيات والفيزياء .

هنالك سيطرة مركزية هي سيطرة الله وقوته التي توجه هذا الكون وهنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض في هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لا بد أن تتم على يدى إله واحد لا آلهة متعددة، (١).

وصدق الله العظيم : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم». ٢٠ عمران - ١٨ :
أما عقل الإنسان المعجز إلى أبعد حدود الإعجاز فيحدثنا عنه الدكتور جودسن هريك . فيقول . «إن الدماغ الإنسانى الذى يبلغ وزنه ألفاً وأربعمائة جرام ، غريب التركيب ، بعيد عن كل تصور أو خيال فلو جمعنا كل ما فى العالم من أجهزة التلغراف والتليفون ، والرادار والتلفزيون ، واستطعنا أن نحولها جميعاً إلى قطعة صغيرة بحجم الدماغ ، فإنها لا تبلغ فى تعقيدها درجة دماغ الإنسان» (٢).

هذه هي آراء العلماء الذين أنصفوا أنفسهم ، وكانوا صادقين مع ضمائرهم ، فرأوا حكمة الخالق ممثلة فى كل شيء ، ولم تزدهم أبحاثهم إلا إيماناً ، ولا علمهم إلا طمأنينة ، ولا اختراعاتهم إلا يقيناً بأن

(١) الله يتجلى فى عصر العلم من ١٢٨ .

(٢) الله والعلم الحديث من ٦٩ .

الإنسان لا يستطيع أن يخلق ذرة تتمتع بحياة وحركة ، لأنه مخلوق
بقدره الخالق الأعظم .

وصدق الله العظيم : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له .
إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن
يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب .»
الحج - ٧٣ .

الرادار وعظمة الله :

من الأجهزة الدقيقة ، التي لم يتوصل العلم إلى صنعها إلا في
السنوات الأخيرة « جهاز الرادار » الذي يستطيع أن يلتقط
صورة الطائرة في أعلى الجو ، ويحدد اتجاهها والمسافة التي تبعد بها
عنه ، كما أنه يستطيع أن يحدد سير الغواصات في أعماق البحار
ويحدد موقعها وهي على مسافة كبيرة من البعد ، وكل ذلك على
أسس معروفة من قوانين الصوت والضوء والكهرباء ، والحق أنه
جهاز عجيب ، ولكن لا ننسى أنه من صنع أيدينا ، فلا داعي
للعجب إذن .

لأننا إذا رأينا إبداع الخالق فسوف نجد أن هذا الجهاز الذي
توافر على صنعه آلاف العلماء والعمال لا يسارى شيئاً مع كسلته

الخاللة ، إذا ما قارناه بأصغر جهاز في حيوان صغير مثل الخفاش .
يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل ، ظهر في السنوات الأخيرة
رأى يقرر أن الخفاش يرسل اهتزازات ترد إليه بالتصادم مع أى
جسم يقابله فيحس به ، وإن نظرية معرفته بالعقبات دون رؤياها ،
هى نفس نظرية الرادار الذى اخترع في عصر الذرة . فانظر كيف أن
ما تفتقت عنه حيل العلماء العصريين من الاكتشافات بهرت العالم .
موجود في الخفاش ١١ ،

ويقول الدكتور واين أولت : هل تم اختراع جهاز الرادار
نتيجة المصادفة أم عن طريق التصميم والاختراع ؟ ثم هل تم تكوين
جهاز الرادار الموجود بحسم الخفاش والذى لا يحتاج من الحيوان
إلى الانتباه ولا يتطلب منه إصلاحاً ، والذى يستطيع أن يورثه
لذريته عبر الأجيال . نقول هل تم كل ذلك عن طريق المصادفة أم عن
طريق التصميم والإبداع ؟ إن الخبرة العلمية للإنسان تقوم على التصميم
وعلى إدراك الأسباب ، وعلى ذلك فإن المشتغل بالعلوم هو أول
من يجب عليه التسليم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع لحدود علمه
أو قدرته ، موجود في كل مكان ، يحيط مخلوقاته برعايته ، سواء
في ذلك الكون المتسع أو كل ذرة أو جزيء من جزيئات هذا

الكون اللانهائية في تفاصيلها الدقيقة ،^(١) .

وهناك حيوانات كثيرة لديها أجهزة حساسة لم يتوصل العلم إلى معرفة كنهها حتى الآن ، فكثير من الحيوانات تحس بالزلازل قبل وقوعها ، وتفزع لذلك ، وتصدر أصواتاً أو حركات تنبيه عن وقوع الزلازل قبل أن تقع ، ولم تخطئ مرة في ذلك .

وقد قرأت أسطراً في مجلة المصور عدد ١٤/٩/١٩٦٢ هذا نصها « والطاوس أيضاً ينذر اليابانيين بالزلازل قبل وقوعها ، إنه يحس بجهاز مجهول في أعصابه باقتراب الزلازل فيصبح . . . ويصبح وراءه الخائفون من الزلازل !! كما أن هناك نوعاً من السمك يسميه اليابانيون سمك القط ، إذا ما أحس بالزلازل خرج من أعماق الماء ، ولجأ إلى الشاطئ يطلب الأمان ، وهو يحس بالزلازل قبل أن يقع بمدة ، فيكون تحوله على الشواطئ نذيراً بوقوع الزلازل . »

وصدق الله العظيم « صنع الله الذي أتقن كل شيء » .

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٣٤ .

الفصل الخامس مع الكيمياء

مع الكيمياء

تتعلق دراسة الكيمياء بدراسة عناصر المواد وتركيبها ،
وخواصها ، وتفاعلاتها ، كما أنها تهتم بوجه خاص بدراسة العناصر
المكونة لهذا الكون الذى نعيش فيه ، وكيف تألفت هذه العناصر
لتكوّن هذا العالم اللانهائى ، كما تعنى الكيمياء الحيوية بدراسة
تفاعل العناصر الكيميائية والمواد الغذائية داخل جسم الإنسان
والحيوان والنبات لتمنحه الطاقة اللازمة للحياة ، كما تعنى كيمياء التربة
بدراسة تركيب التربة والمواد التى تحتوى عليها من معادن وغيرها
لاستغلالها فى رفاهية الإنسان وسعادته .

ودراسة الكيمياء بما تقوم به من تجارب حسية ، واختبارات
معملية ، تعطى نتائج يقينية للقائمين بهذه الأبحاث فى معاملهم بأن
هنالك إلهاً يشرف على هذه العناصر ويحفظ ترتيبها وثباتها .

يقول الدكتور : جون كليفلاند كوثران ، وتدلنا الكيمياء
على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها
يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك
فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن
لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن

بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية . بل وجدت بصورة
فجائية ، (١) .

وصدق الله العظيم « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
والأرض اثريا طوعاً أو كرهاً قالنا أتينا طائعين » . « إنما أمره
إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

ثم يقول الدكتور كليفلاند : « وتستطيع العلوم أن تحدد لنا
الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد وعلى ذلك فإن هذا العالم المادى
لا بد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن
كونية محدودة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان » .

« فإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد
القوانين التى يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن
غير مادى ، وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لا بد أن
يكون متصفاً بالعقل والحكمة ، إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل
فى العالم المادى كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكلوجى دون أن
يكون هنالك إرادة ، ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً
وجرداً ذاتياً . وعلى ذلك فإن النتيجة المسطوية الحتمية التى يفرضها

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧ .

علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالفاً لحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيماً ، علياً ، قادراً على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان ، وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه ،^(١) .

الماء والقوانين العلمية :

تبين لنا الكيمياء حكمة الخالق وإبداعه ورحمته بنا في شربان الحياة وهو « الماء » الذى يقول الله تبارك وتعالى عنه : « وجعلنا من الماء كل شيء حى » ، ومعجزة الماء وحكمة الله فيه أنه خرج عن القوانين الطبيعية والسنن الكونية ، ووجد على صورة غير الصورة التى كانت متوقعة له بالنسبة إلى مكوناته .

يقول الدكتور توماس دافيز باركس : « ولكن هذا النظام الذى نشاهده فى العالم من حولنا ليس إلا مظهراً من مظاهر القدرة على كل شيء لحسب ، بل إنه يتصف فوق ذلك بالحكمة والانجاء تفر تحت يدي صالح الإنسان ، مما يدل على أن اهتمام الخالق بـ »

(١) الله يتجلى فى عصر العالم ص ٢٧ .

عباده ، لا يقل عن اهتمامه بالسفن والقوانين التي تنظم هذا الوجود...
انظر من حولك إلى الحكمة البالغة التي ينطوى عليها خروج
بعض الظواهر عن العادة أو المألوف ، فالماء مثلاً يتوقع الإنسان
من وزنه الجزئى (١٨) أن يكون غازياً تحت درجة الحرارة المعتادة
والضغط المعتاد ، فالنوشادر مثلاً ووزنها الجزئى (١٧) تكون
غازية عند درجة حرارة ناقص ٥٩ ولذلك فإن وجود الماء على
الحالة السائلة ، فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف
ويقفكر (١)

والماء فوق ذلك كثير من الخواص الأخرى ذات الأهمية
البالغة والتي إذا نظر الإنسان إليها فى مجموعها وجددها تدل على
التصميم والتدبير ، فالماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض وهو
بذلك يؤثر تأثيراً بالغاً على الجو السائد ودرجة الحرارة .

ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض
تغيرات فى درجة الحرارة تودى إلى حدوث الكوارث وللماء
خواص أخرى فريدة فى نوعها ، وتدلل كلها على أن مبدع هذا
الكون قد رسمه وصممه بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة :

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٤٥ .

الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد ، ولهذه الخاصية أهميتها الكبرى بالنسبة للحياة .

إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد ، بدلا من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار ، ويكون تدريجياً كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها ، ويكون الجليد الذي يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحته في درجة حرارة فوق درجة التجمد ، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية . وعندما يأتي الربيع يذرب الجليد بسرعة . . . وإني أجد شخصياً أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله -كيم خبير ، وتصميم خالق علوى يعد تفسيراً مرضياً للنفوس ومقنعاً للعقول .

إني أرى في كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة ، إني ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقهم واهتمامه بأمورهم ،^(١) .

وصدق الله العظيم : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » . الحج — ٦٣

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

المصادفة ونشأة الكون :

إن الكيمياء تثبت لنا بالأدلة القاطعة استحالة نشأة الحياة والكون عن طريق المصادفة ، أو المادة العمياء ، فتركيبات الأحماض الأمينية التي تكون البروتينات التي تكون خلايا الكائنات الحية لا يمكن أن يتم تركيبها عن طريق المصادفة إلا باحتمال واحد في عدد لا يمكن التعلق به .

يقول الدكتور فرانك إلن « ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة . إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية ، وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون ، والهيدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠ ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصراً ، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد . وقد قام العالم الرياضي السويسري - تشارلز يوجين جاي -

بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لا تنبأ عن طريق المصادفة لتكوين جزى بروتيني واحد إلا بنسبة واحد إلى (١١٠) أى بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة ، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث يفتج جزى واحد ، أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات ، ويتطلب تكوين هذا الجزى على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بملايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٢ مرة من السنين (١٠٢٣) .

«ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً ، إن العقل اللانهائي . وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزى البروتيني يصاح لأن يكون مستقراً للحياة ، فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة»^(١) .

وصدق الله العظيم : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ١١ .

من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، .
ويقول الدكتور كريسي موريسون : « إن الأوكسيجين ،
والهيدروجين ، وثنائي أكسيد الكربون ، والكربون ، سواء
أكانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها ، هي العناصر
البيولوجية الرئيسية . وهي على هذا ، الأساس الذي تقوم عليه
الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن
تكون كلها في وقت واحد وفي كوكب سيار واحد بشك السب
الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق ،
أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة ، فهو قول يتحدى العلوم
الرياضية ، (١) .

نعم . إن المصادفة لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، وما هي
المصادفة ؟ هي كلمة من اختراعنا نحن البشر ، مجرد كلمة أطلقناها
على ظواهر شاذة لا تحدث إلا نادراً . فهل يعقل أن كلمة من
اختراع البشر تخلق البشر أنفسهم ، بل الكون جميعاً . ما أسخفه
تفكير ذلك الذي يجر إلى خصيص المهانة ، وطمس الفكر ،
وقلب الحقائق .

وصدق الله العظيم : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم
ولا هدى ولا كتاب منير ، .

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٧١ .

، أحسنهم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، هل من خالق غير الله ، .

تنظيم الهواء :

ربما أننا كنا نتمنى لو أن كمية الأوكسجين في الهواء الجوى كانت ضعف ما هي عليه الآن ، حتى نستنشق أكبر كمية منه وبذلك تزداد حيوية ونشاطاً ، وينمو زرعنا سريعاً وتكبر حيواناتنا ونسمن ! أولو أن كمية غاز الهليوم مثلاً كانت أكبر من كميتها الحالية حتى نستفيد بها في تقديمنا الخضارى ، أولو أن كمية الأرجون ، والنيون ، والكينسيوم كانت بكميات أزيد وبنسب أكبر مما هي عليه في الهواء ، حتى نستطيع أن نحول ظلام الليل الدامس إلى شعلة من النور ذى الألوان الزاهية المتألثة .

أقول ، لربما تمنينا ذلك كله ، لأن عقولنا القاصرة لا تدرك لأول وهلة حكمة المنظم في تنظيمه ودقة الموزع لعناصر الحياة في توزيعه سبحانه وتعالى .

والهواء ببيئته الحالية ، وكميته وما يشتمل عليه من العناصر بنسبها الثابتة ، ليدل دلالة قاطعة على وجود إله حكيم لهذا الوجود ، محيط بعنايته كل ما فيه من مخلوقات ، بما هيأ لهم من سبل الحياة . ولا يعرف هذه الأسرار إلا العلماء الراسخون في العلم .

يقول الدكتور كريسي فوريسون : « وكان اتحاد العناصر كاملاً لدرجة أن مازك وهو الهواء المكون من الأوكسجين والنيروجين على الأخص لا يزيد على جزء من مليون جزء من كتلة الكرة الأرضية ، فلماذا لم يمتص كله أو لماذا لم يكن بنسبة أكبر كثيراً من تلك النسبة ؟ في كلتا الحالتين كان الإنسان لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض ، وإذا كان الوجود ممكناً تحت ضغط آلاف الأرتال على البوصة المربعة ، فقد كان من المحال أن يتطور الإنسان . . . ولو كان الهواء أرفع كثيراً عما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجى ، كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً فى الثانية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق ، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية . لا رطمت كلها بالأرض ، ولكنها العاقبة مروعة ، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره^(١) . إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التى يحتاج إليها الزرع ، والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٦٢ .

اللازم ، وعلى الرغم من الانعاثات الغازية من الارض طول
الدهر ، ومعظمها سام ، فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ،
ودون تغيير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . . . ولو كان
الأوكسيجين بنسبة ٥٠ ٪ مثلاً أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١ ٪
فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال ،
لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة
حتى لتسكاد تنفجر . . وإذا امتص الأوكسيجين الصليق ذلك الجزء
الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض فإن كل حياة حيوانية
تقف على الفور . . . وعجبة الموازنة العظيمة هى تلك السكتة
الفسيحة من الماء أى المحيط الذى استمدت منه الحياة والغذاء والمطر
والمناخ المعتدل والنباتات ، وأخيراً الإنسان نفسه . فدع الذى
يدرك ذلك يقف فى روعة أمام عظمتة ، ويقر بواجبانه شاكرًا (١) .

وصدق الله العظيم : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق
فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غناء
أحوى . » سورة الأعلى ١ - ٥ .

وعلماء الكيمياء يقفون مشدوهين أمام إبداع الله الممثل فى
الجهاز الهضمى ذلك المعمل العجيب ، وما يقوم به من عمليات كيميائية

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٦٤ .

معقدة يعجز عن جزء منها أدق معمل اخترعته عقول البشر، وهذا الجهاز يتكون من آلات بسيطة في مظهرها ، عظيمة ، بل معجزة فيما تقوم به من أعمال ، في دقة متناهية ، وتناسق تام ، إن حادت عنه لسبب أو لآخر اختل الجسم واعتزته الأمراض والعلل .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل : « ويتم هضم الغذاء أى تحويله من مواد صلبة معقدة إلى أخرى سائلة سهلة الامتصاص بعمليات دقيقة غاية الدقة ، تقوم خير دليل على وجود الله ، فكل مايا كلة الإنسان من صلب جامد ، وسائل ولزج ، ومبر وحلو ، وثقيل وخفيف ، وحريف ولاذع ، وساخن وبارد ، لحوم وخضر ، وخبز وفاكهة ، وزبوت وشحوم ، وبقول وأبصال ... مطبوخ أو نيء كلها تهضم بمواد واحدة وطريقة واحدة ، مواد اختلفت تراكيبها ، وتباينت تراكيزها يتلقاها جسم الإنسان أدق معمل كيمائى عرف على وجه البسيطة ، فيدفعها في طريقها المرسوم لتصب عليها الغدد إفرازاتها الحضية ، وعصاراتها ذات التركيز المقدر ، الذى لو قل قليلا لما هضم الطعام ، ولو زاد زيادة طفيفة لاحترق الجسم ، فسبحان الخالق العظيم . »

ويبين الدكتور عفيفي محمود أهمية الماء القصوى بالنسبة لكل شيء حتى فيقول : هل عدت مرة من مصيفك لتجد الزهور التى

تزين شرفة مسكنك وقد تدلت على عيدانها ونكست تيجانها ،
وذبلت أوراقها ، وبهت لونها ، بعد أن انقطع عنها الماء فترة
غيابك عنها ؟

هل تعرضت مرة لتجربة الظما الشديد أو تصورت ما يعترى
الظمآن من جفاف الحلق .. وزيف البصر .. وعدم القدرة على
الكلام أو الحركة ، والرغبة الملحة في اعتصار الحجر ولعق التراب ؟
إن كل هذه الأعراض إن هي إلا صراخ الخلايا الحية في طلب الماء !
« لقد خلق الله الأحياء جميعاً ، وجعل الماء ضرورة لاستمرار
حياتها ، كما جعله من قبل ضرورة لبث الحياة فيها .. فنحن وكل
ما حولنا من حيوان أو نبات ، راق أو دنيء ، لم نكتسب صفة
الحياة إلا بامتزاج الماء بذرات أجسادنا .. ولا نستطيع أن نمارس
الحياة في أية صورة من صورها أو أى مظهر من مظاهرها إلا في
وجود الماء .. »

وفي هذا شاهد على قدرة الخالق الأعظم .. تلك القدرة القادرة
التي لا يتسأى إلى إعجازها إيمان المؤمنين ، ولا ينال من حقيقتها
إنكار المنكرين !^(١) وصدق الله العظيم : « وترى الأرض هامدة
فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .
« وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » .

(١) مجلة منبر الإسلام عدد ٢ سنة ١٣٨ ص ٧٩ .

الفصل السادس

مع علم الأحياء

مع علم الأحياء

تتعلق دراسة علم الأحياء بدراسة الكائنات الحية من حيوان ونبات ، من حيث تركيبها ، ووظائفها وطرق معيشتها ، ونموها وتكاثرها ، كما أنها تتعلق بدراسة الخلية الحية المكونة لجسم الحيوان والنبات ، والتي تعتبر وحدة البناء في هذه الأحياء ، وكيف تؤدي هذه الخلايا ووظائفها للحفاظ على استمرار حياة الكائن الحي . وعلى قمة الأحياء التي يهتم هذا العلم بدراستها هو ذلك الكائن الذي قدر له أن يكون سيد المخلوقات وهو الإنسان .

فعلم الأحياء يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة الإنسان ونشأته وتطوره واحتياجاته ، وعلاقته مع ما يحيط به من كائنات ، كما أنه يهتم اهتماماً خاصاً بدراسة مخ الإنسان الذي يميزه على سائر الحيوانات الأخرى ، والذي بفضلله استحق أن يكون خليفة الله على الأرض .

ودراسة علم الأحياء تقوم على التجارب العملية المدروسة ، كما أنها تؤمن بالظواهر غير المرئية التي تسيطر على الأحياء وتحكم سير حياتها ، لذلك . . فعلم الأحياء يسلم بوجود أشياء غير مادية وهو لذلك من العلوم التي تؤدي دراستها إلى الإيمان بخالق هذا الكون ،

الذى لا تستطيع الأبصار أن تدركه ، ولكنها ترى بدائع صنعه
فى مخلوقاته الحية .

كيف برأت الحياة :

تضاربت الآراء ، وتشعبت الأقاويل ، وكثرت النظريات ؛
فى الإجابة على هذا السؤال . فالماديون الذين لا يريدون أن يرجعوا
إلى فطرهم ويعترفوا بوجود الله سبحانه وتعالى ، الذى منّ علينا
بالحياة وما فيها من بهجة ، يعزّون نشأة الحياة إلى حد العوامل
الآتية ، أو بأحد الطرق الآتية على الأصح :

١ - رأى يقول بأن الحياة جاءت « هكذا » مع الأرض عند
انفصالها عن الشمس .

وعدم صحة هذا رأى شئ بديهي ، فكيف نتصور أن توجد
حياة فى وسط درجة حرارته تبلغ ٢٠٠٠ ° مئوية . مع أن هذه
الدرجة من الحرارة يكون كل شئ معها فى صورة غازية ملتهبة ؟

٢ - رأى آخر يقول : إن جرثومة الحياة جاءت إلى الأرض
من كوكب آخر .

وهذا رأى لا يفسر لنا -- إن كان صحيحاً -- إلا المصدر

الذى جاءت منه الحياة في صورة حية ، أما نشأتها فلم يفدنا عنها بشئ .

يقول الدكتور كريس موريسون^(١) : « وقد افترض أن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف ، وبعد أن بقيت زمناً غير محدود في الفضاء ، استقرت على الأرض ، ولكن كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية في درجة حرارة الصفر المطلق^(٢) في الفضاء ، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الاشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها . فإذا كانت قد بقيت حية رغم ذلك فلا بد أنها وجدت لنفسها المأوى الملائم وربما كان المحيط ، حيث أدى اتفاق مدهش في الظروف إلى توالدها وبداية الحياة على الأرض ، وفضلاً عن ذلك يعود بنا هذا الفرض خطوة أخرى فيما نحن بصددده ، لأننا يمكننا أن نسأل : وكيف بدأت الحياة على أى كوكب من الكواكب ؟ »^(٣) .

(١) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك .

(٢) الصفر المطلق [- ٢٧٣ °م]

(٣) العلم يدعو للايمان - ص ٩٤ .

٣ - رأى ثالث يقول إن الحياة بدأت من مصادقة سعيدة :
لتفاعل بعض العناصر الكيميائية مع الماء والوقت الكافي ، الذى
يلزم لهذا التفاعل .

وهذا الرأى يناقض العلم مناقضة تامة ، إذ أن العلم الحديث يقرر
أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة .

يقول الدكتور كريس موريسون : « لا يقدر الآن أحد أن
يقول كما قال هيكلم ، إنه لو أعطى ماء ومواد كيميائية ووقتاً كافياً ،
لاستطاع أن يخلق إنساناً . . (١) والطبيعة لم تخلق الحياة ، فإن
الصخور التى حرقها النار ، والبحار الخالية من الملح ، لم تتوفر فيها
الشروط اللازمة . . (٢) أما المادة فإنها لم تفعل قواعد الالفه
الكيميائية ، وقوة الجاذبية ، وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع
الكهربائية . والمادة ليست مبتكرة ، أما الحياة فإنها تأتى إلى
الوجود بتصميمات وتكوينات جديدة رائعة . . (٣) بيد أنك
قد تقول الآن إن كل ما ورد فى هذا الفصل لا يفسر لنا كيف بدأت

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٦ .

الحياة . أى كيف جاءت إلى هذه الأرض ، والكاتب لا يعرف كيف ، ولكنه يؤمن بأنها جاءت كتعبير عن القوة الإلهية ، وبأنها ليست مادية ...^(١) .

وإذا ما انطلق الماديون بترهاتهم التى لا تستند إلى عقل أو منطق ، زاعمين أن الحياة أوجدتها المادة الميتة نفسها ، وإن هى إلا فلتة من طبيعة السكون ستعود يوماً إلى حالتها الطبيعية ، لأن الحالة الطبيعية للسكون هى السكون الأبدى ، كما يزعمون . فإن العلم ينبرى لهم ليدحض هذه الترهات بمنطق سليم وحجة بالغة ، لأن فاقده الشيء لا يعطيه . فكيف تنشأ الحياة من مادة عمياء ، لا حياة فيها ولا حراك ؟

يقول الدكتور كريسي موريسون : « والحياة تمنح لمخلوقاتنا الفرح لتكونها حية ، فالحمل يرتع ويقفز وهو لا يدرك لماذا ؟

والحياة تلون عيني الطفل وتمنحهما بريقاً ، وتصبغ خديه ، وتبعث بالضحك إلى شفثيه . أما المادة فلا تبسم أبداً . والحياة تنتج الحياة إذ تعطي اللبن لسدد الحاجات العاجلة متوقة هذه الضرورة ، ومتأهبة لما يجي . من حوادث ، ..^(٢) د وأما ما هى الحياة . فذلك ما لم يدركه إنسان

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .

بعد فليس للحياة وزن ولا حجم . إن الحياة ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه ، وعلى هذا فالحياة باقية كشيئته تعالى .

ويقول الدكتور رسل تشارلز آرتست : « أما القوة أو القوى التي تجعل هذه الجبلة (البروتوبلازم) تتحرك ، والتي ينشأ عنها هذا التيار المستمر ، فهي ما لا نعرفه معرفة اليقين وما لا نستطيع أن نفسره في حدود معرفتنا الحالية نفسيّاً صحيحاً ،^(١) .

وصدق الله العظيم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

نظرية التطور

يأخذ الماديون الملحدون نظرية التطور بفهم مشوش وطريقة مغرضة ، ومغالطة واضحة مما أدى إلى الخروج بها عن قصد صاحبها الذي كانت دراساته مبنية على البحث العلمي والملاحظات المتكررة ، حيث طاف العالم ليدرس الحيوانات المختلفة ، تحت الظروف المختلفة ، ونتائج بحثه كانت مجرد فرض على قابل للتعديل والإضافة ، بل قابل للنفي كليه إذا ما ثبت عكس هذا الفرض .

(١) الله يتجلى في عصر العلم من ٧٦ .

أما الماديون فيقولون : مادام البقاء للأصلح ، وما دام
الضرورات تنتج ما يحتاج إليه الكائن الحي ، فإنه لا داعي لوجود
إله منظم لحياة الكائنات ، وما دام الإنسان قد تطور عن قرد ،
فلاداعي لما يصفه به الشعراء والفلاسفة ، وما تتحدث به عنه الكتب
السمائية ، من السمو والجمال ، وقوة الذكاء ، وهو في نظرهم متطور
عن حيوان حقير ، فهو أيضاً كذلك ، لا يمتاز عن الحيوان بشيء
حتى قال قائلهم وهو « بوشنز » : « ليس الإنسان إلا نتيجة المادة ،
وما هو بذلك الكائن الذى يصفه الأخلاقيون ، فما له أدنى خاصية
بمنازاة ... »

أما العلماء الذين تمكنوا من العلم ، فينفون بتطور الإنسان عن
قرد ، ويأخذون التطور على أنه سنة من سنن الكون ، ودليل
من الأدلة الحية على حكمة الخالق .

يقول الدكتور كريسي موريسون : « الإنسان حيوان من
الطليعة وتكوينه يشبه تكوين فصائل السيميا ، ولكن هذا الشبه
الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية
أو أن تلك القردة هي ذرية منحطة للإنسان ، ولا يمكن أحداً أن
يزعم أن سمك القد Cod قد تطور من سمك الحساس Haddock ،
وإن يكن كلاهما يعيش في المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولها

عظام تسكاد تكون متشابهة ، وإنما يعنى ذلك ببساطة أنه فى وقت ما عند بداية التكييف كانت هناك ضرورة متوازية لتنظيم كل من النوعين . إن العلم يشير إلى إيهام الإنسان ، وقدرتها على الإمساك بالعدد والأسلحة ، ويعد ذلك أصلاً لتقدم الإنسان وأن إيهام القرد التى لا نفع لها ، لمى برهان قاطع على أن إيهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إيهام قرد السيميا التى تعيش على الأشجار ، تلك الإيهام المخصصة لهذه المعيشة ، ذلك أن الطبيعة لا تعيد أبداً تيسيراً قد فقد ، والحصان الذى يجرى الآن على أصبع شديدة التخصص ، لا يمكن أبداً أن يستعيد تلك الأصابع التى فقدتها على كره الزمن ، على أننا لا ينبغي لنا أن نشغل أنفسنا بشكل جدى أكثر من اللازم ، بما حدث لأسلافنا منذ مليونى جيل على الأقل ومع هذا يبدو أن البحث عن الحلقة المفقودة — سوف يظهر عبثه ، (١) .

ويبين الدكتور إدوارد ليثركيل (٢) حقيقة التطور ودلالته ، على أنه ما هو إلا مبدعاً من مبدعات الخالق ، وأنه مجرداً عن نسبته إلى الخالق لا يفسر لنا شيئاً مطلقاً . يقول الدكتور إدوارد : الانتخاب الطبيعى هو أحد

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٤٢

(٢) أخصائى علم الحيوان والحشرات .

العوامل الميكانيكية للتطور ، كما أن التطور هو أحد عوامل عملية الخلق ، فالتطور إذن ليس إلا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية ، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوى ، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه ، ولا شك فى أنه من خلق الله وصنعه ، والكائنات التى تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعى قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التى تخضع لها ، فالانتخاب الطبيعى ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التى تسلكها بعض الكائنات فى سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة أو التكاثر بين الأنواع المختلفة ، أما الأنواع ذاتها التى يتم بطريقها هذا الانتقاء فإنها تنشأ عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها ، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ، ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون أو يريدون أن نفتقد. إن الطفرات أو التغيرات المفاجئة ليست مجرد خبط عشواء كما يدعى بعض الباحثين لفترة طويلة من الزمان ، فالطفرات التى تحدث أحجام الأعضاء مثلاً قد تؤدي كما ثبت من بعض البحوث الحديثة إلى صغر حجم الأعضاء المختصة ، والانتخاب الطبيعى الذى يعتمد على الطفرات التى تتم بمحض المصادفة لا يقضى إلا على الأعضاء الضارة ، ومع ذلك فإننا نشاهد أن الأعضاء المتعادلة التى ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل هى الأخرى مما ثبت أن الطفرات ليست دائماً عشوائية وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء ، وعلى ذلك فإنه لا مفر

من التسليم بأن هنالك حكمة وتديراً وراء الخلق ووراء القوانين التي توجهه . ولا مفر لنا كذلك من التسليم بأن التطور ذاته قد صمم بحكمة وأنه يحتاج هو أيضاً إلى خالق يبدعه ،^(١) .

هذه هي نظرية التطور في إيجاز ، وذلك هو رأى رجال العلم فيها . فهل بقي للجاهلين مجال ، ولمدعى العلم والسفسطة حجة ؟

ولكن . . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل

إلهام الأحياء

لا شك أن إلهام الأحياء من أكبر الأدلة على وجود الله الملمهم سبحانه وتعالى ، فالحيوان يتصرف عن طريق الإلهام تصرفات لا تحكم له فيها ، بل إنه يفعل ذلك بدون أن يدري لماذا يتصرف . هذا التصرف ، حتى الإنسان نفسه ، الذي يحاول دائماً أن يعلل كل شيء يفعله ، والذي يستطيع أن يمتنع عن فعل بعض الأشياء بحريته وإرادته ، يقف مشدوهاً أمام قوة الإلهام التي لا يستطيع أن يفسرها .

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٣١ .

عاطفة الأمومة :

إن الإلهام أوضح ما يكون في عاطفة الأمومة ، فالأم تأتي بالعجائب في سبيل وليدها وفلذة كبدها ، مضحية بروحها وبكل ما تملك في سبيل هذا الوليد .

ونحن كل حين نسمع عن أم ألقى بنفسها في البم وراء طفلها الذي جرفه التيار ، ظناً منها أنها ستنقذ حياته . . . ، وتنسى في غمرات تلك العاطفة الحنون ، أنها لا تجيد من قواعد السباحة شيئاً ، وبعد قليل تلفظ أنفاسها الأخيرة بين الأمواج العاتية ، مستشهدة في سبيل أنبل عاطفة على وجه الأرض .

وعاطفة الأمومة لا تقتصر على الإنسان وحده ، بل إنها تكون أوضح بكثير في الحيوان عنها في الإنسان ، وهي تدل على الإلهام بصورة قاطعة ، وهذا من رحمة الله بالحيوان الأعجم الذي يتعرض دائماً للأخطار التي تحيط بصغاره ، فنحن نرى أن أنثى السكابل حينها تلد صغارها ، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، حيث تتحول من حيوان وديع إلى حيوان شرس ، نائرة على كل من تظنه يريد إلحاق الأذى بصغارها .

وكذلك القطط ، والسباع ، والحمام . . .

وحنو هذه الحيوانات على صغارها يفوق حنو الإنسان بكثير .
فحينما تمتلك الإنسان شهوراته ونزواته الخاصة ، يهمل أطفاله
وتتملك الجفوة قلبه .

والأمثلة على إلهام الخالق لمخلوقاته أكثر من أن تحصى .

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل : « من أروع الأمثلة على
الإلهام ما نراه في حيوان الأكسيلوكوب ، الذى يعيش منفرداً في
فصل الربيع ومتى باض مات ، فالأمهات لا ترى صغارها ،
ولا تعيش لتساعدوا في غذائها ، لذلك نرى الأم تعتمد إلى قطعة
من الخشب ، فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار
وبعض الأوراق السكرية ، وتحشوها بذلك السرداب ، ثم تبيض
بيضة ، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتسكون سقفاً لذلك
السرداب ، وتصنع بعد ذلك سرداباً آخر ، فتقست البيضة
وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة ،^(١) .

إن هذا مثلاً فذاً يدحض شبهة القائلين بأن الضرورة هي
الموجدة للأشياء ، فلو كانت الضرورة تستطيع أن تمنحوا على مثل
هذا الخلق الضعيف ، وتقدم له كل ما يحتاج إليه من غذاء

(١) الله والعلم الحديث ص ٣٠ .

وماوى ، لما تحملت هذه الام كل تلك المشقات فى سبيل ضمان الحياة لصغيرها الذى لم ير النور بعد ! وأمثلة إلهام الله للأحياء كثيرة ، لاحظها القدماء والمحدثون ، ويشهد بها كل ذى عقل وبصر . يقول الجاحظ : « إذا دنا الصياد من عش القبجة ولها فراخ ، مرت بين يديه مرأ غير مفيت ، وأطمعته فى نفسها ليتبعها ، فتمر الفراخ فى رجوعها إلى موضع عشاها ، والفراخ ليس معها من الهداية ما مع أمها . وعلى أن القبجة سيئة الدلالة والهداية ، وكذلك كل طائر يعجل له السكيس والسكسوة ، ويعجل له السكسب فى صغره فإذا أمعن الصائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها ، طارت وقد نحتة إلى حيث لا يمتدى الرجوع منه إلى موضع عشاها ، فإذا سقطت قريباً دعتها بأصوات لها حتى يجتمعن إليها^(١) والنعجة ترى الفيل ، والزنديل ، والجاموس ، والبعير فلا يهزها ذلك ، وترى الضبع وهى لم تره من قبل ذلك ، وعضو من أعضاء تلك البهائم أعظم ، وهى أهول فى العين وأشنع ، ثم ترى الأسد فتخافه ، وكذلك البهر والنمر ، فإن رأت الذئب وحده اعتراها منه وحده مثل ما اعتراها من تلك الأجناس لو كانت مجموعة فى مكان واحد ، وليس ذلك عن تجربة ، ولا لأن منظره

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ص ١٨٤ ج ٣ .

أشنع وأعظم ، وليس في ذلك علة إلا ما طبعت عليه من تميز الحيوان عندها ،^(١) .

والدكتور موريسون يقول : « إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد من خبوط بيت العنكبوت ، وتعلقه بشيء ما تحت الماء ، ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش ثم تتكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صغارها وتربها آمنة عليها من هبوب الهواء .

فها هنا نجد طريقة النسيج بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحظة جوية ،^(٢) .

أما الخيل فقد ضربت أمثلة رائعة على الخنان والحب نحو وليدها ، حيرت العقول ، وخلبت الأنظار ، وكثيراً ما نرى مهر الخيل مربوطاً بجوار أمه وهي تجر عربات النقل ، لأنها بدون أن يكون وليدها بجانبها لا تتحرك خطوة واحدة ، وقد رأيت مرة مشهداً رائعاً لأنثى الخيل ، وقد كان نهر النيل في بداية فيضانه وتيار الماء جارفاً ، يسير بأقصى سرعة .

فقد نزلت الفرس إلى المياه وسط هذه الأمواج العاتية ، تغالبها

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ص ١٨٧ .

(٢) العلم يدعو للإيمان ص ١١٧ ج ٣ .

وتتغلب عليها لتلحق بوليدها الذى أخذ فى مركب إلى جزيرة فى عرض النهر ، وفعلت غالبت كل هذه الأمواج فى دقائق معدودة ولحقت بوليدها تشمه وتتمسح به وهى فى غاية الإنهاك والتعب ، ولكنها فى ذات الوقت فى غاية السرور والفرح ... ا

يقول الأستاذ عبد الرزاق نوفل « ومن يشاهد حياة الخيل يعرف أن الفرس إذا مات صغير لها نهنت بصوت مسموع يعرفه القاصى والدانى ، وكثيراً ما يفيض الحزن بالفرس فتأتى من الأعمال ما لا يصدق العقل . . فمذه الفرس التى صاحت وبكت حتى نزلت من هيئها الدموع لموت صغيرها ، وفاض بها الحزن ، حتى أنها توحشت ولم يستطع إنسان أن يقترب من جسد صغيرها وما إن هدأت وحمل الجسد ، حتى سارت خلفه ، ولما دفن لازمت قبره ، وانقطعت عن الأكل والشراب ولم تفد فيها أية محاولة ، حتى أنقذها من عذابها وحزنها الموت... »^(١) . وصدق الله العظيم :
« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به ... » .

إلهام السمك :

لا يقتصر الإلهام على الإنسان والحيوانات الشديدة والطيور فقط ، بل إنه موجود فى الأسماك والحشرات وكل كائن حى ، وربما أنه يتجلى بصورة أروع فى تلك المخلوقات الدقيقة .

(١) الله والعلم الحديث ص ١٣٣ .

يقول الأستاذ نوفل : « يعيش ثعبان السمك في الأنهار ، وعندما يكتمل نموه بأن يبلغ العاشرة من عمره ، يهاجر من البرك والأنهار في مختلف أنحاء العالم ، فتلك التي تعيش في أنهار أوربا تسبح حتى المحيط الأطلسي ، وتلك التي تعيش في النيل وأنهار إفريقيا تسبح إلى البحر المتوسط ثم تخترق مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي ، ثم تستأنف جميعاً رحلة تقطع فيها آلاف الأميال ، قاصدة إلى الأعماق السحيقة في جزر الهند الغربية ، جنوب برمودا حيث تتزاوج وتضع البيض ، وتنتهي بذلك حياتها حيث تموت ، وبعد مدة تخرج الصغار من البيض ، فتكون مخلوقات صلبة شفافة ، كأنها خيوط صغيرة ، لها عيون بارزة ، وتنتهي إلى العودة إلى مواطن آبائها ، في رحلة تستغرق أكثر من ثلاث سنوات في بعض الجهات لتصل إلى مصاب الأنهار التي عاش فيها آبؤها ، سواء أكانت أنهاراً في أوربا ، أم ترعاً في أواسط إفريقيا ، أم بحيرات في آسيا . ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية ، أو ثعبان أوربي في المياه الأمريكية إطلاقاً . . . ١١ ، (١) .

مأعظم تدبير الخالق . . فأى هادى تلك الصغار التي خرجت من البيض بعد موت آبائها ، حيث أنها لم ترها حتى يخبروها بلغتهم الخاصة عن عنوان مسكنهم الأصلي ١١

لا شك أنه الدليل الرائع على إلهام الملهم . . . ، الذى أعطى
كل شيء خلقه ثم هدى .

إلهام الحشرات :

ولنجل الآن جولة قصيرة مع عالم الحشرات ، الذى يكون
أغلب أنواع المملكة الحيوانية ، ولندع العلماء الذين درسوا
وشاهدوا بعض عجائب الإلهام فى الحشرات ، ورأوا الأدلة واضحة
جلية على وجود الملهم سبحانه يحدثونا عن ذلك .

يقول الدكتور كريسى موريسون : « إذا حمل الريح فراشة
أنتى من خلال نافذة إلى عليه بيتك ، فإنها لا تلبث حتى ترسل إشارة
خفية ، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى تلك الإشارة
ويجوابها مهما أحدثت أنت من رائحة بمعملك لتضليلها ، ترى هل
لتلك المخلوقات الضئيلة محطة إذاعة ، وهل لذكر الفراشة جهاز
راديو عقلى ، فضلا عن السلك اللاقط للصوت ؟ أنراها تهز الأثير
فهو يتلقى الاهتزاز ؟

والجندبة النطيط الأمريكية تحك ساقها أو جناحها معاً ،
فيسمع صريرها هذا فى الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل . إنها

تمز بها سبعمائة طن من الهواء وتنادى رفيقها ، (١) .

يقول الأستاذ نوفل : « تستطيع طوائف من العناكب والزنابير أن تحفظ اللحم أسابيع فلا يفسد ، دون الاستعانة بما تفتتت به حيل الإنسان من تبريد أو ثلج ، فهي لما كانت تحتاج إلى المحجم طرياً في طعامها ، ولا نضمن الظفر به كل يوم ، لذلك تحفظ صيدها من الحشرات التي تزيد على حاجتها ، بطريقة لم يستطع الإنسان أن يصل إليها ، فهي تفرز في أبدانها مادة تخدرها دون أن تميته ، فيبقى غذاؤها دائماً طرياً طازجاً ، بل حياً لحين استهلاكه ، ولم يتمكن العلم حتى الآن من تخدير ذبيحة الإنسان ، والإبقاء عليها بحياة كاملة دون موت لحين استهلاكها .. ١١ ، (٢) »

النمل يضرب أروع الأمثلة :

من أعجب ممالك الحشرات مملكة النمل ، التي تكاد تكون أروع مملكة تتجلى فيها عناية الخالق ، وعجيب صنعه ؛ ودروعة إلهامه . فالنمل يعيش عيشة جماعية ، متعاونة إلى أبعد حدود التعاون ، ضاربة المثل الأعلى في إنكار الذات

(١) العلم يدعو للايمان ص ١١٩

(٢) الله والعالم الحديث ص ١٣٩

وكثيراً ما نشاهد جماعة من النمل تحمل حشرة من الحشرات
تبلغ أضعاف وزنها عشرات المرات فيأخذنا العجب من ذلك ،
ولكن بفضل تعاونهم استطاعوا أن يحملوا تلك السكتلة إلى مملكتهم
لتكون غذاء لهم جميعاً !

كما أننا كثيراً ما نشاهد أكواماً من الرمال الدقيقة بجانب جحر
النمل تحتوي على ملايين الوحدات من هذه الرمال الدقيقة ، ولشد
ما نعجب حينما نعلم أن هذه الملايين قد نقلت من داخل الجحر إلى
خارج حبة ، حبة ، كل حبة تحملها نملة في قفها تسير بجهد ونشاط
نازلة صاعدة !

والنمل يتكلم بلغة خاصة فيما بينه ، ونحن نلاحظ ذلك جلياً
حينما نراقب نملة قد وجدت طعاماً لا تقدر على حمله ، فتذهب على
التو مسرعة إلى جحرها ، وبعد برهة قصيرة نجدها قد عادت ومعها
عدد كاف من النمل لحمل هذا الطعام ، إنها لا تخطيء موضع الطعام
مع بعد المسافة !

والقرآن الكريم يحدثنا عن لغة النمل ويقص علينا أن بعض
الناس يفهم هذه اللغة ، وقد كان سيدنا سليمان عليه السلام بما آتاه
الله من ملك لا ينبغي لأحد من بعده يعرف هذه اللغة .

يقول تبارك وتعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، النمل : ١٧ - ١٩

والنمل راع بارع ، وفلاح ماهر .

يقول الدكتور كريسي موريسون « وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير « واختبر منهما ما يحلوه لك ، إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن أن نسميه بمحذاتق الأعشاش ، وتصيد أنواعاً معينة من الدود واليرق أو الأرق .

فهذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ، ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاماً لها ، (١) .

يقول الأستاذ نوفل : « ويزرع النمل زراعات خاصة به ، ويقول العالم رويال ديكنسون « إن النمل قد زرع مساحة قد بلغت خمسة عشر متراً مربعاً من الأرض ، وأنه وجد جماعة من النمل

تقوم بجرثها على أحسن ما يقضى به علم الزراعة ، فبعضها زرع
الأرز ، وجماعة أزالت الأعشاب ، وغيرها قامت لحراسة الزراعة
من الديدان .

ولما بلغت عيدان الأرز تمام نضجها . كان يرى صفاً من شغالة
النمل لا ينقطع يتجه إلى العيدان في تسلفها إلى حب الأرز ، فتزحف
كل شغالة من النمل حبة وتنزل بها سريعة إلى مخزن تحت الأرض ،
وقد طلى العالم أفراد النمل بالألوان ، فوجد أن الفريق الواحد
من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز ،
ولما فرغ من الحصاد هطل المطر أياماً وما إن انقطع حتى أسرع إلى
مزرعة النمل ليتعرف أحواله ، فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة
بالعمل والعمال ، ووجد النملة تخرج من بيتها ، تحمل حبة الأرز
فتذهب بها إلى العراء في جانب مائل من الأرض ، معرض للشمس
وتضع حبتها لتجف من ماء المطر ، وما إن ولى الظهر حتى جف
الأرز ، وعاد الشغالة به إلى مخازن تحت الأرض ١١

فمن ألهم كل هذه الكائنات تلك المعجزات التي تقوم بها؟^(١)
ويقول الدكتور : موريسون : والنمل يأسر طوائف منه

(١) الله والعالم الحديث ١٤١ ، ١٤٢ .

ويسترقها . . . فكيف يتاح لذرات المادة التي تتسكو
تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟ لا شك أن هناك خالقاً أرشدها إلى
كل ذلك ، .

وصدق الله العظيم : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير
بجناحيه إلا أمم أمثالكم . . .)

الإلهام النحل :

من الحشرات التي تعيش عيشة جماعية ، نحل العسل ، .

وحلية النحل تدل دلالة لا ريب فيها على وجود الخالق وهي
مبنية بطريقة هندسية تفوق أى بناء يقوم به العقل البشرى على
أحدث الأسس العلمية ، فهي قد بنيت على شكل مسدس منتظم
الأضلاع ، وذلك الإقتصاد فى مساحة الحيز الذى تشغله الخلية ،
كما أن روعة الإلهام تتجلى فى تلك المادة الشمعية التى بنيت بها
الخلية ، والتى تعمل كطبقة عازلة تحفظ محتويات الخلية من التلف .

كما أن تقسيم العمل الوظيفى فى مملكة النحل يعد مثلاً فذاً
للإلهام . فهناك الملكة التى تضع البيض فقط وتتربع على عرش
الملكة بمفردها ، وهناك طائفة اليعاسيب التى تكون مستعدة
لتلقيح الملكة ثم تنتهى مهمتها وتقضى عليها الشغالة ، وهناك طائفة

الشفالة ، التي تنقسم بدورها إلى طوائف :

فطائفة تجلب الرحيق من الأزهار ، وأخرى تنظف الخلية بما
يعلق بها ، وثالثة تعمل على تهوية الجو في درجة حرارة معينة ،
فيقوم البعض بحك أجنته بجسمه ، حتى تتولد الحرارة التي تعمل
على تدفئة الخلية ، بينما يقوم البعض الآخر بتحريك أجنته إلى
أعلى وإلى أسفل في حركة سريعة ، حتى يعمل على تهوية الخلية ،
كما تقوم الطائفة الرابعة بتقديم الغذاء للمملكة ، كما توجد الأميرات
اللاتي يعتبرن كاحتياطي لتولى إحداهن العرش عند فقد المملكة ١١

وذلك النوع من النحل الذي ينتج من بيض غير ملقح ، إنه
لشيء عجيب في عرف وائين التسكائر والإخصاب .

ثم أخيراً ، ذلك الشهد الذي ينتجه النحل ، والذي أثبت العلم
الحديث والتجارب المتكررة أنه يعمل على شفاء عدد لا يحصى
من الأمراض المستعصية مثل : تصلب الشرايين ، والروماتيزم ،
وضعف القلب ، وضغط الدم . . . بل ومرض السكر أيضاً
لأنه يفوق أعظم دواء ركبته الإنسان .

وصدق الله العظيم : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من
من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرّشون . ثم كلي من كل الثمرات

فأسلكى سبيل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

سورة النحل : ٦٨ ، ٦٩

الإنسان آية الابداع

على قمة المخلوقات يتربع الإنسان ، وهو الآية العظمى على إبداع الخالق .

فهو المخلوق الصغير الحجم ، الضعيف الجسم القوى التفكير ، ذو العقل السامى والبديهة الحاضرة ، الذى استطاع أن يسخر كل شئ فى هذا الوجود بما نفخه الله فيه من روحه ، وبما حباه به من نعمة التفكير وصفاء الروح .

وقد استطاع الإنسان على كبر الدهور ومر الأيام أن يسخر الطبيعة لخدمته ، وأن يقيم الحضارات المزدهرة .. ، لأن الله خلق كل شئ من أجله « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » .
وقد اخترع الإنسان العجلة والعربة ، والقاطرة ، والطائرة ، والصاروخ ، وسفن الفضاء ، والراديو ، والتليفون ، والتليفزيون و . . . وسيستمر فى اختراع أشياء تتضاءل بجانبها تلك التى سبقت .

كما أنه اخترع النبل ، والحربة ، والسيف ، والبندقية ، والمدفع والدبابة ، والقنبلة الذرية والهيدروجينية ، و . .

وصدق الله العظيم : (علم الإنسان ما لم يعلم) .

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . .)

ما أعظم هذا الإنسان حينما يكون إنساناً ، إنه يفضل الملائكة ويتغلب على الجن والشياطين . .

يقول الدكتور : موريسون : إن الانسان وحده هو الذي أوتي عقلاً بلغ من التطور أنه يستطيع أن يفكر به تفكيراً عالياً . والغريزة ليست إلا كنخمة واحدة من الناي ، نغمة جميلة ولكنها محدودة ، بينما العقل البشري يحتوى على كل الأنغام التي لكل الآلات الموسيقية في أوركسترا ، والإنسان يمكنه أن يوفق بين تلك الأنغام جميعها ، وأن يقدم للعالم قطعاً موسيقية متحدة النغم (سيمفونيات) تدنو من الإعجاز ، وإلى أن خلق الإنسان لم تخرج العناية الإلهية كائناتاً حياً من بين الصخور والفطرية ، وله عقل مرن كعقل الإنسان ، والآن يمكننا أن نتصور تلقى

الإنسان قبساً من نور الله يجعله سيداً على الأرض ، عجيباً في مقدرته ، باقياً في مصيره ا،^(١) .

يقول الدكتور : روبرت هورتون كامرون : « أنا أعتقد أيضاً بوجود الله بسبب ما زودني به من الانفعالات ، ولكن هل أضعفت حجتي بهذا القول ؟

هل اعترفت بأن إيماني لا يقوم على المنطق وأني أؤمن لأنني أخشى ألا أكون مؤمناً ؟ كلا فطبيعتنا الانفعالية دليل على حكمة الله وتدبيره ، وإلا فكيف تكون حياة الإنسان بغير هذه الانفعالات ، ولم يمكن أن يعمر الإنسان على سطح الأرض بغير الدافع الجنسي وما يتصل به من الانفعالات : ولماذا تتخاض نسبة وفيات الأطفال عند ما يزداد حب آبائهم لهم إنني أعتقد بوجود الله لأنه وهبني التمييز الأخلاقي ، فالجنس البشري لديه إحساس فطري بما هو خطأ وما هو صواب ... ويختلف الإنسان في جميع الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضية الأخرى فهو خليفة الخالق على الأرض ،^(٢) .

وصدق الله العظيم : « ألم نجعل له عينين . ولساناً وشفهتين . وهدينا له النجدين ، » .

(١) العام يدعو للإيمان ص ١٣٠ .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٣٩ .

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ...).

يقول العلامة الدكتور: سير إرثرا دنجتون: «إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم، وأن الكون أحرى بأن يفسر بالنسب الرياضية في عقل عاقل، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر، وهو الذى يدرك هذه النسب ويدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة دقيقة، وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق في المستقبل — إنساناً آلياً — فليس مما يجوز في العقول أن نتخيل ذلك الإنسان سائلاً عن الحقيقة أو مبالياً بأسباب الحق والباطل، ولكن هذا الشوق إلى الحق هو لب لباب الحياة، وهو هو محور الوجود الإنساني منذ نجم من صلب هذه الطبيعة، هذا هو الذى يجعل الإنسان مغيراً كل المغيرة لما حوله من الظواهر الطبيعية، ويجعله قوة روحانية ... متى ارتفعت الصيحة من قلب الإنسان فيم كل هذا؟ لم يكن جواباً صالحاً لتلك الصيحة أن ننظر إلى هذه التجارب التى نلتفهاها من حسنا ونقول: كل هذا ذرات وفوضى، وهو كرات نارية تحوم وتحوم إلى القضاء المحتوم ... كلا. بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراه روح يستوى الحق في محرابها، وتسكن فيها قوا بل لتنمية الذات بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية عناصر الخير والجمال ...»^(١).

(١) الله، كتاب الهلال ص ٢٤٥.

ويقول الدكتور : موريسون : « وإذا كانت حقيقة الغاية مقبولة بالنسبة لكل الأشياء ، وإذا آمنا بأن الإنسان هو أعظم مظهر لتلك الغاية ، فإن الاعتقاد العلمي بأن جسم الإنسان وجهاز مخه ماديان ، قد يكون سليما . فإن الذرات والهباءات في المخلوقات الحية تفعل فعلا مذهشة ، وتبنى أجهزة عجيبة ، ولكن هذه الأدوات عديمة النفع ما لم يحركها العقل حركات ذات غرض . فهناك إذن خالق للسكون لا يرقى إليه تفسير العلم ، ولا يقدر أن ينسبه للمادة » (١) .

سبحانك ربى . ما أعظم رحمتك ، وما أكثر نعمك علينا : خلقتنا ورزقتنا ، وفضلتنا على كثير من خلقت تفضيلا ولسكنتنا لم نقدرك حق قدرك . فاهدنا ربنا سواء السبيل ، وأخرجنا من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا وأخطأنا ... واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . .) .

الروح المعافاة ووجود الله :

إذا ما تحرر الإنسان من نفسه المادية ، وسبح بروحه الشفافة في رحاب العالم الفسيح ، فلا شك أنه يرى ما لا يراه وهو مقيد

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٣٤ .

بذلك الجسد الفانى الذى ينظر دائماً إلى أسفل ، ويتشبث بعالم التراب .

إذا ما تحرر الإنسان من نفسه المظلمة ، فسيرى عظمة الخالق ممثلة فى جمال مخلوقاته ، وبدائع صنعه ، من أصغر ذرة إلى أعظم جرم ، ومن أدق زهرة إلى أضخم شجرة ، ومن أضيق جدول رقراق إلى المحيط الهادر . . .

وهو قد يصل فى مسجات روحه إلى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

نعم . قد يصل الإنسان إلى كل هذا ثم يدرك الحقيقة العظمى . . . يدرك وجود الله .

يقول الدكتور : موريسون : إن الروح الخالدة التى لا يعوقها الزمن قد ترى أحبائها وتضمهم إلى صدرها ، ولما كان تصورها الذى كل قد أصبح حقيقة روحانية ، فإنها تقدر أن ترى الحقيقة الكبرى ، أعنى الخالق عز وجل ، والجنة هى حيث يشاء أن تكون وإذا ترتفع روح الإنسان الخالدة صوب الله ، كاسبة فى طريقها سعة من الفهم ، إذ ترقى نحو الملاكوت الأسى ، فإن جمال خلق الله فى العالم المادى يتباعد عن النظر ، كما تضمحل

صور الطفولة من ذهن الإنسان حين ينضج ، وهكذا قد تهبط
الكرة الأرضية حقاً إلى درجة التفاهة ، مع تأمل الكون ، وإذن
في روعة الإدراك الروحاني قد تصبح المادة مثل الظل الذي يهت
أمام الشمس المشرقة وتصبح ككلاً شياً .

وهكذا يستطيع الإنسان بكفائته الروحانية أن يتصور
القدرة الإلهية ، ومع تطور روحانيته سيكون أقرب إلى إدراك
جلال الخالق وقدرته وعظمته (١) .

هذه كلمات عالم قضى عمره بين التجارب المادية ، ولكن الروح
الصفية لا يحجبها حاجب عن الاتصال ببارئها ، فهي دائماً تتوق
إلى الذات الأسمى ، مقهورة بهطرتها ، منجذبة بطبيعتها ، آوية إلى
خالقها ...

اللهم هب لنا روحاً صافية ، وقلباً نقياً ، ونفساً مطمئنة ...

يقول الدكتور : كلود . م . هائاواي : « لقد وجدت أن
الإيمان بالله هو الملاذ الوحيد الذي تطمئن إليه الروح ، وكما يقول
« أوجستين » : « لقد خلقنا الله لنفسه ، وإن أرواحنا لتبقى فلقمة

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٨٠ ، ١٨١ .

حائرة حتى تجد راحتها في رحابه ،^(١) .

يقول الدكتور روبرت هورتون كاميرون : ويتفق ما وصلت إليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء في الكتب السماوية من أن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين : البصر ، والبصيرة ، أما البصر فهو ما نتعلمه في حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة ، وأما البصيرة فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا فيكشف لنا به ما لا نعلم . وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر كتلك التي أشرنا إليها سابقاً ، ثم نلتجئ بعد ذلك إلى الله لكي يكمل إيماننا ويدعمه... لقد لمسنا هذا الدليل في نفسى منذ اثنتين وثلاثين سنة عندما كنت بحجرتي في القسم الداخلي بجامعة « كورنل » ، يوم جاءني البرهان وأغدق الله على قلبي نور الإيمان . لقد أصبح الله لدى أكبر من كل ما سواه حتى إنني أَرْضَى أن أفقد كل شيء في هذا الوجود ، ولا أرتد إلى حالتي السابقة ،^(٢) .

هذه تجربة شخصية من عالم « معملي » تدل على صفاء

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٩٠

(٢) المرجع السابق ص ١٣٠

١٣٢

الروح والإيمان الصادق ، الذى منّ الله به عليه ، بعد أن كان
ملحداً على ما يبدو من كلامه .

فسبحان مقلب القلوب . . .

وصدق الله العظيم : « من یرد الله أن یهدیه یشرح صدره
للإسلام . . . » .

« هو الذى أنزل السکينة فى قلوب المؤمنین لیزدادوا إيماناً
مع إيمانهم . . . » .

إفصل السنين مع القرآن

مع القرآن

كان من حق هذا الفصل أن يقدم على غيره من فصول هذا الكتاب ، لأن أحق الكلام بالتصدير هو كلام الله . . لكن لما كنت قد بدأت صفحات الكتاب بآيات من كتاب الله ، أحببت أن يكون الختام مسكا بآيات من كتاب الله كذلك . . لأن خير ما نتمنى أن نختم به كلامنا هو تلاوة آيات من الذكر الحكيم .
والواقع أن صفحات الكتاب من أولها إلى آخرها تتوسطها آيات من كتاب الله ، تشع نوراً على أسطرها . .

كما أنني لا أقصد من هذا الفصل سرد آيات التوحيد في القرآن الكريم ، أو الآيات التي تناقش المشركين مناقشة منطقية ، فهذا مما لا يتسع له مثل هذا البحث المختصر .

ولكن قصدي من هذا الفصل هو عرض نماذج من آيات القرآن الكريم أثبت بها أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر بحال من الأحوال ، وإذا لم يكن كذلك ، فهو إذن صادر من كائن لا ترقى إليه عقول البشر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وبذلك نثبت وجود الله بهذا المنطق عن طريق القرآن نفسه ،
الذي يعتبر أكبر دليل على لا يمكن أن يتطرق إليه الشك في
عقول المنصفين .

وبما لا شك فيه ولا اختلاف ، أنه لم تخل مؤلفات أى
عبرى وجد على ظهر البسيطة ، منذ وجدت الدنيا إلى يوم الناس
هذا من مواطن النقص والزلل ، سواء فى أسلوبها ، أو فيما حوته
من معلومات . . .

كذلك لم نسمع عن بشر قط ، برع فى جميع العلوم ، وكانت
معلوماته فيها متساوية ، وإلى درجة التخصص القصوى .

كما أننا لم نسمع عن بشر استطاع أن يشرع قوانين تصلح جميع
موادها ، حتى ولو لقرن من الزمان ، إذ أن كل إنسان إنما يفكر
بحسب مقتضيات عصره وبحسب مفاهيم وعرف ذلك العصر ،
ولا يستطيع أن يتجاوز بفكره القاصر حاضره ، وينظر إلى
المستقبل البعيد ، فيضع له الأسس والقوانين والتشريعات التى
تحكم سلوك الناس عشرات الفرون ، بل إلى ما شاء الله . . .

كما أننا نرى أن جميع السكتب التى تروى تاريخ السابقين ،

١٣٧

لم تخل جميعها من الخرافات والأساطير والمجاملات ، إن لم يكن أغلبها خرافات وأساطير ...

أما القرآن فهو على النقيض من ذلك تماماً :

فأولا : لم يتجرأ أحد له عقل سليم منصف ، أن ينقد آية واحدة من آيات القرآن الكريم لنقص فيها ، أو خلل في أسلوبها أو عدم صدق فيها ترويه .

ثانياً : أشار القرآن إلى جميع العلوم التي يعرفها البشر والتي لم يعرفوها بعد ، وذلك بالإشارة إلى أسسها إجمالاً ، أما التفصيل والتفسير فقد تركه لعقل الإنسان .

ثالثاً : جاء القرآن بتشريعات تصلح - باعتراف العقلاء في كل زمان ومكان - لجميع البشر على كل السنين ؛ وتتابع الزمن ؛ وأن هذه التشريعات هي وحدها التي تستطيع أن تخلق مجتمعاً عالمياً لا حروب فيه ولا بغض ، ولا ظلم ، ولا انحلال .

رابعاً : قص القرآن قصص السابقين على منهج صادق وحقائق ثابتة ، أيدت صحتها الدراسات العلمية الحديثة من حفريات وغيرها

والقرآن حين يقص القصة فإن القارىء يحس أنه يعيش فصول هذه القصة فصلا فصلا ، مجسمة أحداثها أمام ناظريه .

القرآن والعلوم

أشار القرآن الكريم إلى كثير من الحقائق العلمية التي ثبت بعضها بعد تقدم العلم والاكتشافات ، والتي لم يظهر الكثير منها حتى الآن ولا تزال في طي الغيب .

والقرآن حينما يتحدث عن العلوم ، فليس معنى ذلك أنه يضع التفاصيل التي تبنى عليها هذه العلوم ، أو الطرق التي يجب أن تتبعها في دراستها ، بل إن معرفة هذه التفاصيل ، واستنباط تلك الطرق قد تركت لعقول البشر ، التي وهبها الله قوة من التفكير تستطيع بها أن تتسكّر وتستنبط النظريات .

وسوف نكتفي في هذا الفصل باستعراض بعض الآيات التي أشارت إلى بعض الحقائق العلمية ، على قدر فهمنا لها ، والله أولا وأخيراً هو الذى يعلم مراده منها .

ومرة السورة :

يقول تبارك وتعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة .
وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت
الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ،

الحاقة ١٣ - ١٦

هذه الآية تقرر أنه إذا أتى أمر الله بنهاية هذه الحياة الدنيا ،
فإن الكون سيضطرب ، وتلك الأرض وما عليها من جبال ، وفي
نفس الوقت يسرى هذا الاضطراب في جميع أجزاء هذا الكون .

وهذه الحالة للكون يقرر العلماء ، على أسس من النظريات
والحقائق العلمية ، أنها ستحدث حتما في يوم من الأيام . حيث أن
هناك جاذبية عامة بين جميع أجزاء هذا الكون تحفظ له وحدته
ونظامه ، وإذا ما فقدت هذه الجاذبية فإن أجزاء الكون بالتالي
سوف تفقد وحدتها وتماسكها وارتباطها مع بعضها البعض . وهكذا
يخبرنا القرآن عن ذلك بأسلوب معجز :

« وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . . . وانشقت
السماء فهي يومئذ واهية ، .

فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم - وهو الامي - محيطاً بجميع
النظريات الفلكية والطبيعية والكيميائية التي قررت هذه الحقيقة
بعد جهاد مضن الإنسانية على كره الدهور ؟؟

ميلان محور الأرض :

يقول تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » .
ذلك من آيات الله . . . »

الكهف : ٧

حينما قرأت هذه الآية السكرية خطر لي خاطر ، فقلت في نفسي : ألا تدل هذه الآية على ميلان محور الأرض وتؤيد النظرية القائلة بذلك .

ثم راقبت الشمس في شروقها وغروبها فلاحظت ما يلي :
أولاً : من وقت الشروق إلى وقت الزوال في الظهيرة لاحظت أن الشمس تميل ناحية اليمين بالنسبة للشخص الناظر ناحية الشرق ، فإذا ما انتصف النهار صارت الشمس عمودية فوق رؤوسنا .
ثانياً : من بعد الزوال إلى الغروب لاحظت أن الشمس تتجه ناحية شمال الشخص الناظر إلى الشرق أيضاً .

وحينما رجعت إلى معنى الآية اللغوي ، ووجدت أن معنى تزاور . يعني تباعد ومعنى تقرضهم . يعني تقطعهم ، تأكدت مما ذهب إليه خاطري ، لأن محور الأرض لو لم يكن مائلاً لكانت

لشمس تسير في حركتها الظاهرية على خط متعامد مع خط لاستواء الذي يقسم الكرة الأرضية . وفي هذه الحالة كان يصبح لشيء ظل واحد فقط ، من جهة واحدة ، واكتننا نرى الحائط مثلاً في الضحى له ظلال . ظل أمامه وظل عن الجانب الأيسر بالنسبة لشخص الناظر إلى الحائط من ناحية الغرب .

أما في فترة العصر فإننا نرى العكس من ذلك ، حيث نرى للحائط ظلاً خلفه وظلاً ناحية الجانب الأيمن بالنسبة لنفس الشخص السابق . وهذا دليل قاطع على ميلان محور الأرض . وقد قمت بتجربة بسيطة على جسم كروي ثبت عليه بعض المسامير وأدركته أمام مصباح كهربائي بحركة مائلة المحور فوجدت ما يؤيد ما ذهب إليه خاطري .

وأنا حينما قرأت بعض كتب التفسير — وهو عدد قليل بالنسبة لكتب التفسير الأخرى التي لم أطلع عليها — لم أجد فيها ما يشير إلى هذه الحقيقة . لذلك أرى أنه من الصدق مع نفسي ومع أمانة العلم أن أقول : إن هذا الرأي الذي أثبتته ، ليس منسوباً إلى أحد ، حتى أتحمّل عبأه وحدي . والله أسأل أن يقينا شر الزلل .

فهل كان في وسع رجل أمي أن يقرر هذه الحقيقة التي لم تعرف إلا قريباً ؟ كلا . إنه تنزيل الحكيم الخبير .

مفيدة الروح :

يقول تبارك وتعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . الاسراء : ٦٥ .

هذه الآية تقرر أن الروح لا يعرف كنهها أحد ، وأن معلوماتنا عاجزة كل العجز عن أن تدرك حقيقة الروح . والعلم الحديث يقرر ذلك بكل تأكيد ويعترف بأن الحياة والروح لا يمكن لأحد أن يعرف كنههما .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من علماء علم الحياة ، قام بتجارب أثبتت له أن الروح لا تعرف حقيقتها ؟؟

ولو كان هذا القرآن من عنده ، لانتز هذه الفرصة الموانية ليظهر علمه وفلسفه نحو شيء لم يعرف أحد حقيقته من قبل ، ويعتبر نفسه المكتشف الوحيد لهذا السر العجيب ، ويقول لهم : إن الروح هي كذا وكذا ، ولو عن طريق السفسطة . ولسكنه لم يفعل . . . لأنه لا يعرف . . . ولأنه لا ينطق عن الهوى .

نقص الأوكسجين :

يقول تعالى : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » . الأنعام : ١٢٥

تفيد هذه الآية أن الإنسان إذا ارتفع إلى مسافات شاهقة ، فإنه يشعر بضيق في التنفس بسبب نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا ، كما قرر ذلك العلم الحديث .

فهل كانت لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجهزة التي استطاع أن يعرف بها كمية الأوكسجين في كل طبقة من طبقات الجو ، وأن هذا الأوكسجين ضروري لعملية التنفس ؟

إن البشرية في عهد محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن تعرف إلا أربع عناصر في هذا الكون ، هي : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار !!

عجائب السماء :

يقول تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

هذه الآية تبين ما يقع من البشر لو فرض أنهم عرجوا إلى السماوات العلى ، لأنهم في هذه الحالة سوف يرون من العجائب والألوان التي لم يعمدوا لها مثيلاً ، ما يخلب أنظارهم ويحير عقولهم ، فلا

يصدقون أنهم في حالة وعى ، بل إنهم سكارى الأبصار ، مسحورو
الآلأباب ، فهذا الذى يروونه لا يمكن إلا أن يكون من فعل السحر
الذى وقعوا فى حباته .

فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم -- على فرض أنه بشر
عادى -- قد رأى كل هذه العجائب حتى يستطيع أن يصف هذه
الحلة ؟ كلا . إنه الله الذى يعلم ما فى السموات والأرض . . .

فى مجال التشريع

إن التشريع القرآنى هو التشريع الوحيد الذى يستطيع أن
يبنى عالماً خيراً ، وقد أيقنت بهذه النتيجة كل اليمين منذ أن بدأت
أفهم معانى آيات كتاب الله من خلال تلاوتى للقرآن . فقد بهرتنى
هذه التشريعات التى تقوم على أسس نفسية وفقاً لمقتضيات النفس
الإنسانية ، وكم تعجبت لهذا العالم الغافل عن طريق سعادته ، وسبيل
حل مشاكله التى تسكاد تحطمه وتقطع أوصاله . .

كم تمنيت لو أن الإنسانية رجعت إلى رشدها ، وعرفت الطريق
إلى هدى بارئها .

إن التشريع القرآنى شمل جميع مناحى الحياة ، من سياسة
واقتصاد وأخلاق واجتماع . . ومهما حاول البشر أن يصدروا

من تشريعات ، أو يقتنوا من قوانين ، فإنهم سوف يظنون أنهم ، لا يجدون لها كلهم حلولاً ، ولا لسعادتهم طريقاً ، ما لم يطلبوا الحل من خالق البشر ، العليم بسرائر النفوس . .

وإنني لأعجب أشد العجب من إنسان يدعى أنه يؤمن بالله ثم يعترض على تشريع من تشريعات القرآن ، ويصفها بأنها غير إنسانية أو أنها فيها نوع من الوحشية ! وأنت حينما تسأله : أليس هذا القرآن هو كلام الله ؟ فسيجيبك . بنعم . سبحان الله ! هل هذا الشخص يعني ما يقول ؟ كيف نقول إننا نؤمن بالله ، ثم نعترض على حكم من أحكامه ؟

إن هذا السلوك يعتبر أشد من الشرك في نظري .

ولسكى تتضح أمامنا الرؤيا فسنحاول عرض بعض التشريعات القرآنية ثم نقارنها بتشريع البشر ، لنرى البون الشاسع بين تشريع البشر وتشريع خالق البشر . . .

مر القتل :

قال تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين . . . »

تبين هذه الآلية عقوبة القاتل المتعمد وهى القصاص منه ، أى قتله فى مقابل القتل الذى قتله ، غير مراعاة لأوامر الله حرمة ، ولا الإنسانية عاطفة ، ولا الأخوة حقاً .

ومثل هذا الشخص يعتبر مجرماً وخطراً فاسداً ، إذا ترك فسيشل حركة المجتمع ، أما إذا قتل هذا الشخص من فوره فإنه سيكون عبرة للآخرين ورادعاً لمن يعتدون على أرواح الأمنين .
فأى شخص إذا أيقن أن مصيره هو الموت حينما يقدم على مثل هذه الفعل الشنيعة ، لا شك أنه سوف لا يفعل . .

وهذه العقوبة تعتبر إيجابية ، وهى إذا طبقت فى أى بقعة من بقاع الأرض فتصيح جريمة القتل العمد فى حكم النادر .

وقد تبين بعد الدراسات الطويلة لعلماء البحوث الجنائية ، أن أهل القتل لا تهدأ تأثيرتهم أبداً بدخول القاتل السجن ، حتى ولو أخذ كل المدة التى حكم بها عليه ، ولمكنهم يحاولون أن يثأروا من أى شخص من أقرباء القاتل وبذلك تروح كثير من النفوس البريئة ضحية لمثل هذا التصرف السيء .

وكم سمعنا أن قاتلاً ذهب إلى أهل القتل بعد أن قضى ربع قرن فى السجن ليأخذوا منه بالنار ، على أمل أنهم لن يفعلوا ذلك ،

١٤٧

حيث أنه قد أخذ جزاءه بكل هذه السنوات الطوال ، كما أن هذه المدة الطويلة كمفيلة بأن تنسبهم ذلك الحادث المؤلم ، ولكن ماذا كانت النتيجة في كل مرة ؟

كانت النتيجة في أغلب الأحيان هي إفراغ الرصاص في صدر هذا الشخص من بندقية ابن القتل ، الذي أشرب ابن النار من صدر أمه المتأجج بنار الإنتقام .

ثم ماذا ؟ يتسلسل الأمر قتيلا بعد قتل في عرض مستمر ، ينسى فيه الكل وشائج الأخوة ، ومعاني الرحمة ، وروح التسامح والعفو . .

إذن فمقوبة السجن لمثل هذه الجريمة لا تؤدي إلى صلاح المجتمع ، بل هدمه .

لأن القاتل إذا لم يقتل مباشرة ، فإن نار النار تتأجج في قلوب أهل القتل وتكون النتيجة هي سقوط العشرات من الأرواح البريئة .

كما أن الإجراءات القانونية المعقدة ، التي تأخذ شهورا وربما سنوات ، تفسح المجال لعملية الأخذ بالنار وانتشار الفوضى في المجتمع .

والعلاج الحاسم الوحيد هو تنفيذ حكم الإعدام فوراً ، ففقد شخص أهون كثيراً من فقد العشرات ، بل المئات .

ويكفي ضرراً ما بعده ضرر ، فقد روج الأخوة من قلوب الإخوة ...

وصدق الله العظيم : « ولکم فی القصاص حياة یا أولى الألباب لعلکم تتقون » .

مر العرفقة :

قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » .

هذه الآية الكريمة تحدد العقاب لمن يتعدى على الأمنين ، فيؤرق مضاجعهم ، ويفجعهم في أموالهم ، ولا يلتقي لأوامر الله بالا ، ولا للأخلاق حرمة .

حدد القرآن عقوبة أمثال هؤلاء بقطع أيديهم ، وهي تقطع في الحال ، أمام مشهد من الناس . ثم يمشى السارق بين أفراد المجتمع ، وعلامة الإثم ظاهرة للعيان .

ما أخزاه موقفاً ذلك الذى يشعر به هذا المعتدى على حرمان
الأخلاق وحقوق الناس .

والنرى الآن مدى الإيجابية فى هذا العقاب :

أولاً : يعرف هذا المعتدى بين الناس ، فيكونوا دائماً
حذرن منه .

ثانياً : يكون منظر هذا السارق المقطوع اليد عبرة لكل من
تحدثه نفسه بالاعتداء على حقوق الغير ، لأن أى إنسان لا يريد
أن يتصور نفسه وهو يمشى بين الناس أقطع اليد ، موصوماً بذلك
الإثم الخزى .

والنتيجة الحتمية لكل هذا هى انعدام هذه الجريمة من المجتمع
تقريباً .

ولا بأس — والعقل المتزن يقر ذلك — من التضحية ببعض
فى سبيل مصلحة الكل . إن الطبيب يقرر قطع عضو من البدن
قد أصابه العطب لأن وجوده بهذه الحالة يهدد البدن جميعه بالتلف
ففقد عضو من البدن أخف بكثير من فقد البدن كله .

والسفينة إذا كانت مهددة بالغرق بسبب زيادة حمولتها من الناس ، فإن العرف والعقل يؤيدان إلقاء بعض راكبيها في عرض البحر لنجاة بقية الركاب ، حيث أن مصلحة المجموع اقتضت ذلك .

ونحن إذا قارنا بين العقوبة التي حددها القرآن ، والعقوبة التي حددها القانون الوضعي ، لوجدنا البون شاسعاً والفرق كبيراً ..

وعيوب عقوبة القانون الوضعي وهي السجن تتضح فيما يأتي:

أولاً : بدخول السارق السجن سوف تترمل زوجته ، ويتشرد أولاده ، وربما أدى ذلك بالأسرة إلى الانحراف وسلوك طريق الجريمة .

ثانياً : بعملية حسابية بسيطة ، إذا أحصينا النفقات التي تنفق على رواد السجن في العالم ، لوجدناها تبلغ مئات الملايين من الجنيهات ، وكان يمكن أن تنفق هذه الملايين لرعاية دول بأسرها ، تعاني من الفقر وانخفاض مستوى دخل الفرد .

ثالثاً : أن السجن في غالبية الأحيان يخرج من السجن وقد تأصلت في نفسه روح الجريمة ، فيكون خطراً على الأمن والأمنين .

وكم سمعنا أن سجيناً قد خرج من سجنه ، ثم عاد إليه بعد أسبوع بسبب نفس الجريمة التي دخل السجن من أجلها ، لذلك فإن الجرائم قد انتشرت بشكل فظيع في جميع أنحاء العالم ، وقد أبدى علماء الأخلاق مخاوفهم من هذه الظاهرة المفزعة ، التي تعتبر نكسة للبشرية ما بعدها نكسة .

وذهب الباحثون هنا وهناك ، يتلمسون الدواء الناجع فلم يهتدوا إليه .

وواجهنا نحن المسلمين أن نقدم هذا الدواء لأنفسنا ، ولإخواننا من بني الإنسان ، حيث أننا نملك هذا الدواء ، والدواء في العرف الدولي وأوامر الدين ، إنما هو حق مشترك بين جميع أبناء البشر .

ترى . هل كان بوسع رجل عاش وسط الصحراء المقفرة ، في بيئة تسرى بين جنبااتها شريعة الغاب ، أن يقن هذه القوانين ، ويشرع هذه الشرائع ، التي لم يستطع أساطين الحضارة على مرالزمان أن يصلوا إليها ، ولن يصلوا . . .

إنه تشريع رب العالمين الذي يعلم احتياجات مخلوقاته وخبايا نفوسهم وما يصلحهم وما يضرهم . . .

في مجال السياسة

قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها
بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء
إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوها بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله
يحب المقسطين ، المجرات : ٩ »

تقرر هذه الآية الكريمة أنه إذا تقاتلت طائفتان من المؤمنين
فيجب الإسراع إلى الصلح بينهما ، وتهديئة النفوس الغضبي ، حتى
لا يتفاقم الأمر وتكون العاقبة وخيمة ، أما إذا ركبت إحدى
الطائفتين رأسها وأصرت على اعتدائها ، فيجب حينئذ قتالها حتى
ترجع عن غيها ، وهي لا محالة راجعة ، لأنها ستجد جميع القوى
في هذه الحالة ضدها .

وإذا ما تحقق الهدف ورجعت هذه الطائفة إلى رشدها ، فإن
المهمة لا تنتهي عند هذا الحد ، بل يجب حينئذ تطييب الخواطر
والدعوة إلى الصلح على أساس التصافي والتسامح ، كما يجب العمل
على تحقيق العدل ما أمكن لإعطاء كل ذي حق حقه .

أما شريعة الأمم المتمدينة ، أو على الأصح التي تدعى أنها

١٥٣

متمدنة فهي تقوم على الوقوف في صف المعتدى ضد الضعيف
المعتدى عليه ، حتى تقتسم الغنيمة معه . وبذلك عانت الشعوب
الضعيفة ويلات الاستعمار ، وصنوف الاستعباد ، كأبشع ما تكون
صورة الاستعباد من مخلوق حي لمخلوق حي ، فضلا عن استعباد
الإنسان لأخيه الإنسان .

فأى بون يفصل بين هذا الظلم وذلك التشريع السامى !

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً في السياسة إلى
درجة يسبق بها علماء العالم في وضع التشريعات ، وهو الذى نشأ
أمياً في بيئة لا تقيم للعدل وزناً ، ولا تعرف للإنصاف طريقاً ...
بل شريعته أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وليس نصرها للظالم
بردعه عن ظلمه كما يقرر الإسلام ، ولكن بالوقوف معه ضد
المظلوم عملاً بالحمية الجاهلية .

وبعد . فهذه آيات من كثير ، أردت أن أثبت بها أن أحداً
لا يستطيع مهما أرق من قوة العقل ، وسلامة التفكير ، أن يقرر
ما جاء فيها من حقائق وأحكام .

لا شك أن وحى الله يتجلى فيها بأوضح صورة ، بما لا يدع

بجلا للظن بأنها صادرة من عند غير الله « ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

« إنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك
لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥
« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » الإسراء : ٨٨

« تم بحمد الله »

شكر

أتقدم بجزيل الشكر وأعظمه إلى كل من عاون على إخراج هذا الكتاب عملياً وأدياً .

وأخص بالشكر السيد الدكتور على محمد مطاوع عميد كلية طب الأزهر الذى دفعنى إلى الأمام مشجعاً على إخراج هذا الكتاب . والسيد الدكتور محمد نور الدين رائد الشباب بكلية طب الأزهر الذى يعتبر مثلاً حياً وقوة طيبة للشباب الناهض . والسيد الأستاذ محي الدين الألوانى المدرس بجامعة الأزهر الذى فتح الطريق أمامى لتنفيذ فكرتى وكان معى خطوة بخطوة . كما أشكر السيد الأستاذ أحمد حسن غزى مدير المطبعة العالمية الذى زودنى بنصائحه وإرشاداته الأبوية ، كما أسدى جزيل شكرى إلى الأخ الأستاذ محمد عبد اللطيف سالم البلىنى الذى قام بالإشراف الفنى وتصحيح الكتاب . والأخ الأستاذ يحيى السباعى على روحه الطيبة وبجهوده المشكور . كما أشكر الأخ الفنان محمود كامل الذى قام بتصميم الغلاف بلمساته الفنية .

وأخيراً أشكر جميع العاملين بالمطبعة العالمية .

فهرس

الموضوع	صفحة
تصدير	١
تقريظ	٣
تقديم	٥
مقدمة	٩

الفصل الأول

- شبه الملحين
لماذا يلحد الناس — ثبات الكون عند هودسن — تباين
المخلوقات عند جيميل — الوسط المناسب والمصادقة ...

الفصل الثاني

- مع الفسك
بين سقراط وأحد الملحين — ديكرت والذات الكاملة .

الفصل الثالث

- مع الفلك
القوة المهيمنة — استحالة الخلق بالمصادقة — علاقة
الأرض بالكون

الفصل الرابع

مع الطبيعة ٦٧
العقل الإلكتروني وعظمة الله — الرادار وعظمة الله ...

الفصل الخامس

مع الكيمياء ٨٥
الماء والقوانين العلمية — المصادفة ونشأة الكون —
تنظيم الهواء

الفصل السادس

مع علم الأحياء ١٠١
كيف بدأت الحياة — نظرية التطور — إلهام الأحياء —
عاطفة الأمومة — النمل يضرب أروع الأمثلة — الإنسان
آية الإبداع — الروح الصافية ووجود الله

الفصل السابع

مع القرآن ١٣٥
القرآن والعلوم — وحدة الكون — ميلان محور الأرض —
حقيقة الروح — نقض الأوكسيجين — عجائب السماء
في مجال التشريع — حد القتل — حد السرقة ١٤٤
في مجال السياسة ١٥٢
شكر ١٥٥
استدراك ١٥٩

استدراك

سقطت بعض الكلمات سهواً من بعض الصفائف وصحة الكلام كما يأتي :

صفحة ٥٢ سطر ٣ من أسفل : في قيامها على أبداع الأشكال
وأكملها ألا تدل على وجود إله منزّه عن الجسمانية حتى ، حكيم ،
موجود في كل مكان يرى حقيقة ...

صفحة ١٠٤ سطر ١٠ : أما المادة فإنها لم تفعل قط أكثر مما
تمليه قوانينها فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيميائية

تصحيح

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
يوجهها	يوجهه	١٤	٧
قالة لتمييز	قابلة لتمييز	٣٤	٤ من أسفل
يجب	يجب	٣٦	١١
شتان ما بين	شتان بين	٦٣	٤
جهازا	جهازا	٧٥	الأول من أسفل
خصيص المهانة	خصيص المهانة	٩٢	٤ من أسفل
كريس موريسون	كريسي موريسون	١٠٤	٦
وحدة اللون	وحدة السكون	١٣٩	عنوان
وخطرا عضوا	خطرا وعضوا	١٤٦	٤

هذا الكتاب

- يحطم تلك الأكاذوبة التي تقول : إن البحث العلمي يؤدي إلى الإلحاد .
- يجعلك تستطيع أن تناقش أى ملحد مناقشة علمية مما يؤدي إلى إيمانه بالله .
- ينتقل بك في صورة مشوقة بين المفكرين والفلاسفة وعلماء الفلك والطبيعة والكيمياء والأحياء ، وكبار المخترعين وأساطين العلم ويثبت اعترافهم بوجود الخالق .

لقد طاف بنا المؤلف مع مختلف العلوم في كون الله متفلا من محيطاته إلى أفلاكه ومن ذرات مواده إلى عجائب مخلوقاته ، فلا يسع القارئ بعد الانتهاء من قراءته إلا أن يزداد يقيناً بما يحس به بالفطرة من وجود خالق يحبه ويرعاه ...

د . علي محمد مطاوع
عمد كلية طب الأزهر

د العلم في رحاب الله ، ... هذا لون جديد من البحث لم تعده المكتبة العربية إلا قليلاً . وهذا الكتاب الذي يضعه المؤلف المجتهد الناشئ أمام القارئ العربي صغير حجمه ، كبير نفعه ...

محي الدين الألواني
المدرس بجامعة الأزهر

إنني أقدم للأسرة الطبية أديباً جديداً وإن كان بعد ما يزال طالباً ولكن العمل الذي أنتجه أكبر من أن يقوم به أمثاله .
وإنني أتعلم أن يكون هذا الكتاب بداية لحياة أدبية وعلمية لهذا الكاتب الناشئ .

د . محمد نور الدين
مدرس التشرع بجامعة الأزهر